فيرينا آبيشير

# النساء واللغة

## التصورات الاجتماعية للاختلاف



ترجمة: د. قاسم المقداد

دراسات أدبية






فيرينا آبيشير

# النساء واللغة

## التصورات الاجتماعية للاختلاف



ترجمة: د. قاسم المقداد






# النِّسـاء واللُّغـة

## التصوُّرات الاجتماعيَّة للاختلاف

عنوان الكتـــاب: النساء واللغة
اســـم المؤلـــف: فيرينا آيبشير
اســـم المترجـــم: د. قاسم المقداد
المـوضـــــــوع: دراسات فكرية
عدد الصفحات: 178 ص
القيـــــــاس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 1000 / 2019 م - 1440 هـ
ISBN: 978-9933-38-171-4






سورية - دمشق - ص ب 4650
تلفاكـس: 2314511 11 963+
هاتـــف: 2326985 11 963+
E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

فيرينا آبيشير

# النِّساء واللُّغة

## التصوُّرات الاجتماعيَّة للاختلاف

ترجمة

د. قاسم المقداد

Verena Aebischer

# Les Femmes et le Langage

# المحتويات

# مقدمة

يرى المراقب – الخارجي – في القدرة على اكتشاف الخصائص الملائمة للبيئة، وبنائها واستباقها سمة خاصة بالعقل البشري . فهو ينتخبها، ويرتبها ويبني عليها آفاق رؤيته : أي آفاقه الخاصة بواقع معين .

يهتم هذا الكتاب بتصور جزء من هذا الواقع . فهو معنيٌ بالتصورات العقلية التي تقود المراقب – سواء أكان رجلاً أم امرأة – إلى التمييز بين الكلامين الأنثوي والذكوري ويؤدي إلى اعتبار النساء ثرثارات .

إن سماع النساء يثرثرن هو، في الحقيقة، جزء من واقع المراقب، فهذا المراقب يبني، أو يعيد بناء تصوره عن المرأة، المرأة الثرثارة، والثرثرة النسوية التي تشكل عمادها . ويتم اختيار العناصر التي تدخل في هذه الثرثرة تبعاً لوجهة نظر المراقب، فتبدو له شبيهة بتأويله لإدراكاته . ويمكن مقارنة تصور المرأة – كأي تصور آخر – بخريطة : فهي تمثل أرضاً، لكنها ليست هذه الأرض ( باتيستون، 1972، 1979 ) .

هل ثمة حاجة لدراسة نفسية – سوسيولوجية للمرأة الثرثارة؟

أ . يتصف هذا التصور بكونه يطبَّق مسبقاً على جميع النساء : فهو يقود المراقب إلى وسم جميع أعضاء طبقة معينة بسمة بعينها – الثرثرة–، وإلى خلط سمات الطبقة بسمات أعضائها الأفراد خلطاً عشوائياً .

ب . يشكل هذا التصور مجال معرفة كلي الحضور يبني الناس – رجالاً ونساءً – حوله علاقات تعاون، وتنافس، أو صراع، ويتبادلون آراءهم، وانطباعاتهم، وأحكامهم المسبقة حوله .

إن تصور واقع اجتماعي معين، ومن ثم فإن هذا الواقع الاجتماعي، وتصور المرأة والثرثرة ينسج شبكة من التواصل الذي ينخرط فيه الأفراد . إن تصور واقع معين من خلال تنوع آفاقه، هو تصور اجتماعي .

لدراسة التصور الاجتماعي للمرأة الثرثارة ثمة سؤالان يطرحان نفسيهما :

- ما الذي نعرفه عن المرأة الثرثارة؟
- كيف نعرف ما نعرفه عن المرأة الثرثارة؟

أقترح بناء هذه الدراسة النفسية – السوسيولوجية على النحو الآتي :

- في الفصل الأول سأدرجُ مفهوم تصور الثرثرة بوصفه سمة عنصرية من خلال جمع أشهر الأقوال والمعطيات المعروفة من الحس العام من جهة، ولخلق نوع من التآلف مع المفهوم، وبيان وجهه العنصري، من جهة أخرى .
- لطالما كانت لغة النساء موضوعاً لأبحاث عدة تدخل في مجال الألسنية، وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الإناسة ( الأنثروبولوجيا ) . ناقشتُ في الفصلين الثاني والثالث هذه المقاربات المختلفة لكي أحدد المدى الذي تقترب هذه الأبحاث أو تبتعد عن تصورنا للثرثرة بوصفها سمة عنصرية .
- هذه النتائج المتشابهة والمتجانسة التي تشكل مدونة corpus مسوَّغة إحصائياً على نحو جيد تتضاد مع التنوع الملوَّن والمتعدد الأشكال لتصورات ستين امرأة أجريت معهن مقابلات .

استبقنا تحليل المقابلات بالفصل الرابع الذي يقدم تصنيفاً يتألف من أربع مجموعات : المرأة التقليدية، والمرأة الحديثة، والمرأة الجديدة، والمرأة المناضلة . كيف تتوافق مع العنصرية الملازمة لمفهوم الثرثرة؟ وكيف يفسرنَ الأنوثة ومفهوم المرأة؟ وقد جاءت الأجوبة على كل من الأسئلة التي درسناها وحللناها في الفصلين الخامس والسادس مختلفة جذرياً وفقاً للانتماء إلى إحدى المجموعات الأربع .

- الفصلان الأخيران يلتقيان بالفصل الأول في بيانهما، بالاستناد إلى استبيان أجاب عليه مائة فاعل ساذج – من الطلاب والطالبات – إن الطابع العنصري لسمة "الثرثرة" مستمرة في مداعبة خواطر الناس . وقد قدمت المعالجة المتقدمة من خلال الحاسوب نتائج بالغة الأهمية .

في نهاية هذه الدراسة، لا يمكن أبداً وضع نتائج متسرعة أو حاسمة . لكن الخلاصات التي تفرض نفسها، بنظري، والتي سأختتم بها هذا العمل، تسوغ بشكل وافٍ

إجراء دراسة نفسية سوسيولوجية للتصورات الاجتماعية لكل من المرأة والثرثرة .

# الفصل الأول
# الثرثرة بوصفها سمة عنصرية

## 1 . نقطة انطلاق

″يمكن أن تجعل من الموظف الصغير أليفاً،

ومن المرابي كريماً

ومن الأناني المحب لذاته محسناً

ومن الجبان شجاعاً،

ومن النائب العام العجوز متساهلاً سلس القياد،

ومن رجال المال لطفاء،

لكن لا يمكنك أن تجعل المرأة عاقلة راشدة .

تزور المرأة جارتها للهذر والبقبقة، كما نعرف، من أجل الحديث في شؤون الحارة كلها

فتتدخل بكل شيء، وكل شيء يعنيها؛

وتحمل كل شيء فوق ذراعها

والقول إن المرأة ليست ثرثارة،

هذا غير ممكن .

**( ″ ثرثرة النساء″ .**

**كتبها شخص غير معروف عام 1857 ) .**

هذه الأغنية التي تعود إلى كاتب غير معروف تدخل القلب بلا استئذان، وتلامس وتراً حساساً لدى القارئ أو المستمع . أو على الأقل، من المتعذر كبح ابتسامةٍ داخلية ومتفهِّمة – مثلما يقال بالضبط Schmuzlen في اللغة الألمانية – بخصوص المؤكد "كم هذا صحيح"، بالنسبة للبعض، "كم هذا خاطئ"، بالنسبة للآخرين .

الثرثرة : كلام ينسب عموماً إلى المرأة : ففي الألسن كلها – الأوروبية على الأقل – ثمة أقوال مأثورة وحكم تصف فعالية تنسب إلى النساء : أي الكلام!

* وظيفة المرأة هي الكلام ( أورورا لايت عن جسبرسن 1922 )

* يفتقر بحر الشمال إلى الماء، ولا تفتقر المرأة إلى الكلام .

* اللسان سيف المرأة، لا تتركه يصدأ أبداً ( قول مأثور صيني ) .

* حيثما توجد المرأة يغيب الصمت ( حكمة شعبية ) .

إذا صدقنا الحكمة الشعبية، ينتابنا الاعتقاد بأن المرأة تحتاج إلى الكلام حاجة السمك إلى الماء . حينما نود معرفة الجواهر التي يتكون منها ذلك الماء، علينا أن نلاحظ أنه مضطرب . هل يتكلمن؟ هل يثرثرن؟ لن نعرف هذا أبداً . كل ما نعرفه هو أنهن يقمن بذلك، بل يقمن به بغزارة . لكن ما الذي يقمن به على وجه التحديد؟ إذا نظرنا إلى معنى كلمة ثرثرة لنصف بها كلام النساء، فلا نجده واضحا على الإطلاق، وغير محدد أبداً، ويتلون ويتغير ويتكيف مع ضرورات اللحظة . فأيما كلام يقلنه، وكيف يقلنه، الحكم ملتبس : إنه ذم الآخرين، والنميمة، والثرثرة الخفيفة، وعموماً هو الثرثرة . إنها قصص نساءٍ يروينها فيما بينهن، ولذلك ليس من المدهش أن يتكون في أذهان الناس أنها تقنية لغوية مثلما يُماهى التحليل النفسي غالباً بكونه علاجاً نسائياً . هنا يمكنهن الكلام عن أنفسهن، وحيث يمكنهن إسماع صوتهن . ويخص موسكوفيتشي Moscovici ( 1976، ص 146 ) التصورات الاجتماعية للعلاقة التي يفترض أن تقيمها النساء بالتحليل النفسي بقوله : "النساء يلجأن إلى تحليل أنفسهن بدافع الضعف، والأنانية، والاستعراض" .

بما أننا طرحنا قضية المفهوم، فسنجد تنوعاً كبيراً في دلالات الكلمة . أحياناً تراها تعني ذرابة اللسان، كما تشير الأقول المأثورة السابقة، التي تخدش الأذن الحساسة للمراقب، هذه الغزارة لكلمات نساء لا يتوقفن عن الكلام، وأحياناً نجد نقصاً في المضمون . ينسجم الرأي الثاني مع الأول، وهو حاضر دائماً، بطريقة أو بأخرى، حينما تكون

الثرثرة النسائية هدفاً للهجوم : "لدى النساء دائماً أشياء يقلنها . حتى لو لم يكن لديهن أشياء يتحدثن عنها، تراهن يغرقن أيضاً في تفسير السبب ( ... ) وحينما لا تتكلم المرأة، قد نعتقد أنها مريضة، أو تعاني من مشاكل بالغة الخطورة..." ( سيون، Sion 1948، ص.53 )

وطوراً هو الشعور بأن المحادثة لا تدور في حلقة مفرغة فقط بل تراها قصيرة بكل بساطة لما تعانيه النساء من عجز فكري، علماً أنهن يتكلمن بسرعة أكثر مما يخمنه الرجال . وهنا، نرى شكسبير بالغ الرحمة حينما يجعل روزاليندا الحسناء تنادي :

ألا تعرفون إذاً بأني امرأة؟

حينما أفكر علي أن أتكلم .

هذا الضجيج المحبب للنفس :

النساء جنس تزييني

ليس لديهن شيئاً يقلنه أبداً

لكنهنَّ يقلنه بطريقة ممتعة

( أوسكار وايلد ) .

سرعان ما تكتسب الفتيات ثرثرة محببة للنفس

( روسو )

يراها[الثرثرة] غالبية المشاهدين لا سيما حينما تكون الفتيات في عمر معين، مصدر إزعاج كبير . النساء الحريصات على المُسارات، يثرن حفيظة أُناس مثل تارد Tarde، على سبيل المثال : " إن أحد أكبر العوائق أمام بناء مجتمعات استهلاكية تعاونية تتمتع بمزايا واضحة بالنسبة إلى المستهلك، هي كما يراها أحد المراقبين الحصيفين "عادات الثرثرة التي نجدها في المحلات التجارية . هناك تتم اللقاءات، ويتم تبادل أخبار الحي، وكل أنواع الثرثرة العزيزة على قلوب النساء والتي تربطهن بالموردين." بل إن هذا الاستعداد لدى النساء هو الذي يجعل بعض المجتمعات (

استثنائياً ) تقرر البيع للجمهور ( وليس للمشتركين فقط ) لأنه لا يعود للمحل عندئذٍ مظهراً خاصاً، والنساء يعتقدن أنهن يأتين إلى محل ″عادي″ ( تارد، 1910، ص . 100 ) .

كما توحي كلمة ″ثرثرة″ أيضاً بما تشكله الإشاعة من تهديد خطير . ونظراً لسرية هذه الكلمة وغموضها، فهي تكبر بالضجة وحمل الأخبار التي تنتقل من شخص إلى آخر غير معروفين، ولا يخضعان لأي رقابة اجتماعية . لا أعني هنا الغيبة المنسوبة إلى النساء . فهذه تتوجه تبعاً للمراقبين، بشكل أساسي ضد نساء أُخريات ″ : ″أقسى الكلمات وأكثرها لذعاً وقتلاً هي تلك التي توجهها النساء إلى بعضهن″ ( روبو Reboux، 1949، ص . 145 ) . مصدر التهديد هو الطبيعة المتكافئة لهذه المحادثات التي تدور بين الأقران، من سلطة خفية تستخدم لغة لا يفهمها المراقب الخارجي، والتي تستبعده، ولا يمكنه السيطرة عليها .

المحادثة عامل قوي في نشر الأفكار والمشاعر، كما يفضل عليها الصمت – عند النساء! ″ . . . بل ترانا نأمرهنَّ بالسكوت الدائم عن أي شيء حينما نرى فيه خفةً وعاراً ووقاحة . وإن سألهنَّ المقربون منهن، وطلبوا منهن أياه، فيجبنهم بتواضع ( ... ) ويعملن أيضاً على استخدام خطابٍ يكون محموداً لقصره وجزالته أكثر منه لفصاحته وإطنابه″ ( باربارو، 1667، ص . 109 ) .

مما لا شك فيه أن فكرة الثرثرة المرتبطة بالمؤنث تعد من أقدم الأفكار وأكثرها ديمومة . فالأدب يتحدث عن النساء الثرثارات، لدى الحضارات جميعها . في العصر الوسيط الأول ثمة محفورات تبين ذلك صراحة ( تنظر الصورة رقم 1 ) . وفيها نتعرف على سبب هذا ″الشر″؛ ونعرف بأي ″مملكة″ يرتبط : في فترة حيث يمر الخلاص عبر الصلاة، فإن الشيطان هو الذي يدفع النساء إلى الثرثرة خلال القداس .

لكن هذه العادات لا تقتصر على نساء الناس ″المتحضرين″ فقط . يروي لنا تارد حالة تلك ″المرأة المتوحشة التي أثنى عليها أحد المبشرين بعد اعتناقها للمسيحية لتحاشيها إضاعة وقتها في ″الزيارات المتعددة″ التي تتبادلها نساء البلاد ( كندا ) ″ ( 1910، ص.94 ) . تتحول الثرثرة هنا وهناك، واليوم بوصفها سمة خاصة بالنساء، في أذهان الناس إلى حقيقةٍ ملموسة، أو حتمية في كل الأحوال . طبعاً، مع الحُجب الطرية لـ″ذكورية mâlisme″ اليوم تجعل الإيحاءات أكثر خفية، لكن الحجارة ما تزال مبعثرة

في حديقة التفاهم الكامل هنا وهناك . ويعد المقبوس الذي نشرته صحيفة لوفيغارو Le Figaro ( الجمعة 19 أيار 1978 ) مثالاً في هذا الإطار . فقد جاء في تعليق لأحد الصحفيين على إنشاء تيار نسوي في كنف الحزب الاشتراكي ما يأتي : ″في الحزب الاشتراكي، كما في باقي الأحزاب الأخرى، لجنة نسائية . حيث تلتقي السيدات، ويتحدثن بأشياء وأشياء، هامة وملموسة، لكنها نادراً ما تلامس تقاسم المسؤوليات السياسية.″ ومن ثم فهي لا تلامس الأشياء الجدية، كما توحي فكرة هذا الصحفي .

إن التصورحول المرأة الثرثارة لا يقتصر على الناس العاديين فحسب : بل نجده أيضاً لدى بعض رجال العلم . فترى علماء نفس، وعلماء اجتماع، وعلماء أحياء اجتماعيين، وعدداً من الباحثين اليوم ينكبون على دراسات توضيحية لـ″الحقيقة النسوية″ التي تتضمن، بطبيعة الحال ″الكلام الأنثوي″ . لهذا أجريت اختبارات القابلية، والذكاء، والمستويات وقياس القدرات، لملاحظة الاختلافات والتحقق منها، وكما هو دور الترمومتر الذي يستخدم لقياس الحرارة، راحوا يقيسون اختلاف القابليات والذكاء بين الفتيات والشباب، والرجال والنساء . كما وضعت دراسات تؤكد أن مستويات الكفاءات الكلامية لدى الفتيات في سنواتهن الأولى أعلى من المستويات الكلامية للفتيان ( ماكوبي Maccooby 1966 ) . ويخبروننا أن الدماغ الأنثوي اليوم أكثر ذكاء من نظيره الذكوري في كل ما له علاقة بالتعبير الشفهي . ( Sullerot، 1978 ) . وتبذل جهود كبيرة كلما أُريد فيها تحديد السبب العميق لهذه الظواهر . وظل الاعتقاد سائداً حتى القرن الخامس عشر في أن الشيطان يدفع النساء إلى الثرثرة . ومنذ ذلك الوقت، فقد تأثيره على العالم الإدراكي للرجل - والمرأة - الغربيين . فحلت محله اليوم، الحتميات البيولوجية والفيزيولوجية ( الطبيعة الأنثوية، الجسد الأنثوي ) .

## 2 . الاختلافات والتشابهات بين العالم المذكر والعالم المؤنث

هل هذا التمييز حقيقة بيولوجية؟ أم سوسيولوجية؟ لا يهم، فهنا وهناك، والأمس واليوم بالنسبة إلى رجل الشارع مثلما للإنسان العادي أو العلمي فإن النتائج واحدة : لأن إدراك العالم هو الذي اختزل الصفات الكيفية والجسدية في حامل واحد . المراقب ″يتعرَّف″ على المرأة من خلال ثرثرتها . وخلافاً للرجل الذي تفتح أمامه مجالات الصفات الفردية، يبقى خطاب المرأة محصوراً في مجال من الإمكانيات المحددة .

وحصرت الثرثرة بالمرأة، وحينما يتعرف المراقب على المرأة من خلال ثرثرتها، فهو بهذا يسعى إلى إضفاء حقيقة بيولوجية وماديةً، وعاطفية، ونفسية عليها . هذا الموقف الذي ينطوي على اعتبار خصائص جماعة بشرية معينة، مهما كانت طبيعتها، بمثابة نتائج لخصائصها الفيزيائية، أو البيولوجية، هو موقف عنصري . بعدها لا يعود مهماً أن يكون سبب هذا العنصر التمييزي حتميات بيولوجية أو اجتماعية . المهم، إدراك هذا العنصر، وتنظيم الطريقة التي يدرك من خلالها الرجال والنساء واقعاً معيناً . الموقف العنصري يقوم على بيلجة biologisation، أو نفسنة psychologisation، أو جمعنة socialisation الاختلاف المُدرَك : فيدرك الطابع الفيزيائي الظاهر ( الذي يُعتقد أنه كذلك ) ، بما في ذلك اللكنة، واللسان، والحركات وغيرها، بوصفه طابعاً بيولوجياً . لا يهم أي نوع من الاختلاف الفيزيائي يمكن تفضيله لا سيما وأنه قادر على تقديم سندٍ فيزيائي لتسمية اجتماعية ما.. . الاختلاف الفيزيائي الحقيقي لا يوجد إلا لأنه سُمي كذلك، بوصفه دالاً من قبل ثقافة معينة ( Guillaumin، 1972، ص . 67 ) .

لم تعد صفة المرأة إحدى الصفات الأخرى التي تحدد الفرد . وكون المرأة ذلك فإن هذه الكينونة تتماهى بعدد من الخصائص التي يتصور المراقب أنها ملائمة ليصف بها المرأة . تُنسبُ إلى النساء، بوصفهن فئة بيولوجية، خصائص تتيح ″التعرُّف″ عليهنَّ من خلال ″خصوصيتهنَّ″ لأنهن مختلفات عن الشعب المُذكر : ولأن الأحبولة العنصرية تخلطهنَّ ببعضهنَّ، وتنسينا الاختلافات الفردية التي تتميز بها لهجتهنَّ .

تتحول الثرثرة إلى علامة على الاختلاف بين عالم مذكر، وعالم مؤنث . وسواء أكانت هذه السمة حقيقية أم مُتخيلة، فهي تُختلَطُ بماهية بيولوجية هي النساء، وتعمل على هذا الأساس بوصفها سمة عنصرية، ويطرح الاختلاف، من خلال الغيرية، بين الرجال والنساء كأمر مطلق . وهذا الاختلاف هو الذي يضع النساء خارج العالم المذكر . لكننا نتعرف ببساطة على أوجه الشبه القائمة بين العالمين : فالرجال والنساء ينتمون إلى الثقافة نفسها، والأمة نفسها، ويمكن أن يكون لهم السلوك نفسه، ويتكلمون اللغة نفسها . لكن نوعاً من أشكال خلط الاختلافات والتشابهات ( سمة أساسية للتماثل ) بين العالمين المذكر والمؤنث يجعل من الثاني مجموعة أقليّتية . إن جعل المرأة أقلية، كأي أقلية أخرى يعبر عن موقف عنصري : ″وهي وسيلة تجعل الاختلاف المرغوب شعاراً يمكن التعرف عليه، إذا لم يكن علامة جسدية، أو ″ماركة″ . هذه الماركة تسمح بألا نُخدعُ″ و″ألا نقع في الفخ″، لكنها، على وجه الخصوص، الضامن لحقيقة هذه الاختلافات، وعدم

الانعكاسية، ولطابعها الجوهري، لأن العلامة الجسدية لا تتغير : إنها لا تزول.. . وبتعبير آخر، إنها علامة الأغلبية باعتبارها علامة اختلاف، وفي الوقت نفسه، علامة أمان لدلالتها على الديمومة ( Guillaumin، 1972، ص . 76-77 ) .

إن سمة الاختلاف، أو بصمته تعود إلى انطباعات ثابتة ناشئة عن أن المراقب يحدد قبل أن يراقب . وهكذا، يُنظرُ إلى المرأة التي تتكلم بوصفها ثرثارة، وخطابها تافه وغير فعّال . ونتحدث عنه كما نتحدث عن المطر والطقس الجميل، أي هو كلام لا يعني شيئاً؛كلام من دون تفكير؛كلام في توافه امور، أو عبارة عن تطريز، أو خرقة، إنه الكلام عن كل شيء وعن لا شيء : ذلك هو العبء الثقيل الذي تحمله الخصوصية الطبيعية!

أود أن أُضيف أن هذا البحث عن الاختلاف لا يعني المراقب فحسب، فالمعنيات به يشاركن فيه مشاركة فعالة عبر نظرتهن إلى أنفسهنَّ بالطريقة نفسها .

يبين لنا التاريخ الحديث والمعاصر بعض الأمثلة عن نساء ينتمين إلى مجتمعات جيدة يسعين إلى التميز، والاختلاف .

وبطبيعة الحال، فإن الوسائل المتبعة لتأكيد هذا الاختلاف ليست بلا حدود . إنها تلك التي تجدها النساء في متناول أيديهنَّ : سواء تعلق الأمر بكلامهنَّ أو بجسدهنَّ .

كانت الرغبة في التهميش راسخة لدى النساء المتحذلقات خصوصاً . فتراهن يستبعدنَ المفردات المعروفة شعبياً، ويستبدلنها بالمجازات ليبدن أكثر جمالاً، وليكون كلامهن أكثر إيقاعاً . وقد يكون هدف هذه الظاهرة تهذيب السمع . لكنها، من دون شك، تهدف إلى إبراز نخبوية الاختلاف .

كما نجد هذه الظاهرة الهادفة إلى بلوغ أقصى درجات الرهافة في الملبس الراقي، المسرف في إتقانه الذي تسعى النساء إليه يحملهن مدار المجتمع الراقي في سنوات العشرينيات والثلاثينيات . وتشبه رغبتهن في إبراز دواخلهنَّ من دون تشويه سمعتهنَّ، وسعيهن وراء الأسلوب في مواجهة أي دُرجة، وجهودهن الدائمة لقطع أنفاس الحضور، برغبة المتحذلقات في الانفصال عن جلافة الأمور العادية وسماجتها .

كما تميزُ الرغبة في الاختلاف شريحةً من الحركة النسوية . بعد أن أُعيد الريش والقبعات إلى الخزائن، وأخرجن منها اليافطات المطالبة بالحق في الاختلاف، وبالكلام

الخاص بالنساء، والعودة إلى امتلاك أجسادهنَّ بوصفهن نساء هي المحاولة الواعية للتميز، وأن كانت مختلفة . وهذا كله باسم البعد البيولوجي، والفيزيولوجي، والسيكولوجي ( وغير هذا ) للجنس .

# الفصل الثاني
# الإطار النظري :
# وصف مقاربات
# اللسان والجنس ومقتضياتها

## 1 . القطيعة بين العنصرين البيولوجي والاجتماعي

لوحظ لدى كثير من الجماعات اللغوية[1] المعروفة، عدد من التمايزات بين طرائق الذكور وطرائق الإناث في الكلام . وقد دهش المراقبون والمبشرون، ومن ثم علماء الأعراق واللغويون بهذا الأمر الغريب واكتشفوا اختلافات – في أفريقيا، وأستراليا، وأمريكا وآسيا – في اللسان، واللغة، والسلوك[2] بين المرأة والرجل .

في عام 1582 ( ينظر 1975 ،Key، ص . 14 ) كان الحديث يدور حول اختلافات باللفظ بين الرجال والنساء، وربطت هذه الاختلافات بوجود لغة راقية ولغة عامية .

يمكن الوقوف على هذه الاختلافات في مستويات البنية اللغوية كلها : مستوى الوظيفة الصوتية، والمستوى النحوي الصرفي، والمستوى المعجمي، أو المستوى الدلالي، من دون أن يكون ذلك دليلاً على وجود اختلاف في اللسان، ولا سيما وجود قاسم مشترك بين اللسانين المذكر والمؤنث، هو اللسان .

فعلى صعيد وظيفة الصوت ( الفونولوجي ) ، يتجلى الاختلاف في اللفظ، وفي تقطيع الأصوات : "يرى المراقبون الدارسون لأصواتية phonétisme اللهجات المؤنثة أننا أمام تشويهات واعية إلى حد ما لصويتات phonèmes أو لكلمات يستخدمها رجال ينتمون إلى الجماعة اللغوية نفسها ( 1975 ،Kassai، ص.75 ) .

يرى تروبيتسكوا ( Troubetzkoy ( 1970 ، أحد كبار الألسنيين المرموقين في حلقة براغ أن جميع الطرائق الفونولوجية[3] التعبيرية التي تستخدم، في جماعة لغوية معينة، لتمييز جماعة محددة من الفواعل الناطقين تشكل منظومة، ويمكن اعتبار مجموعها بمثابة أسلوب تعبيري للفواعل المعنيين . كما يعتبر أن اختلافات الجنس التي تتجلى في لفظ بعض أصوات اللغة، لا سيما لدى الجماعات اللغوية المتمايزة أو غير المتمايزة من وجهة نظر اجتماعية، وثيقة الصلة بالموضوع :

″في الحكي المونغولي المسمى dar khat، تنتقل حركة الأحرف الصوتية الخلفية والمتوسطة، في تلفظ النساء، نحو الأمام قليلاً، بحيث تقابل الأصوات u, o, a الأصوات الآتية عند الرجال : u, o, a [فوق كل حرف نقطة]، ويقابل الأصوات التي يتلفظ بها الرجال : ü, ö, ä لدى النساء، ويقابل الحرف الرخو x ( ش ) عند الرجال الصوت الانسدادي k عند النساء″ ( تروبيتسكوا، 1970، ص . 20 ) .

وفي اللغة الروسية ″يكون الفرق بين بداية الصوت o ونهايته ضعيفاً جداً في اللفظ العادي للرجال، بل لانكاد نلحظه، لكنه يكتسب أهمية بالغة لدى النساء، مع أن بعضهن يلفظن Þ u بوضوح بدلاً من الصوت o ( وهو علامة على العامية ) . الفرق بين اللفظ الذكوري واللفظ الأنثوي غير موجود هنا إلا في درجة التحول إلى مصوت مزدوج diphtongaison، لكن الرجل يلفظ الصوت o بدرجة تدوير عادية بالنسبة للفظ الأنثوي، وسرعان ما يبدو هذا اللفظ بأنه مخنث ومصطنع″ ( تروبيتسكوا، 1970، ص . 20 ) .

ومع أن تروبيتسكوا يرى أن الوصف التفصيلي للمنظومة الفونولوجية للسان معين عليه أن يأخذ بالحسبان الاختلافات التوافقية ( لا يهتم اللساني إلا بالاختلافات التوافقية، أو العشوائية ) بين اللفظ الذكوري واللفظ الأنثوي، إلا أنه لا يمتنع، كغيره من ألسنيي عصره، عن اعتبار أن الطريقة المثلى للتلفظ هي طريقة الرجل . كما يضيف الملاحظة التالية : ″ما يبرهن على أن هذا التفصيل اللفظي غير محكوم على الإطلاق فيزيولوجياً، بل محض اتفاقي، وهو أنه لا يظهر بوضوح لدى بعض النساء إلا في الخطاب المصطنع بغية الغنج، أي حينما تشدد المرأة على أنوثتها″ ( 1970، ص.21 ) ويقول في موضع آخر : ″.. . الحكي ( السرد ) الذي يشبه الزقزقة ويؤثر على سذاجة بعض السيدات عبارة عن مجموعة من العلامات الصوتية الاتفاقية″ ( ص . 22 ) .

كما وصف كاساي Kassai تغير نبرة الحرف الصوتي ( diphtongaison 1975، ص.76 ) بقوله : ″ثمة عدد كبير من الأشكال التي تتضمن الصوت i الطويل أو u طويل تقبل التنويعات الخاصة بتغير الحرفين الصوتيين ay وaw ( أي، أو ) ؛ فتلفظ كلمة غرفة في هذا الحكي التونسي بِيْت ( بكسر الباء ) ، وبَيْت ( بفتح الباء، وتسكين الياء ) ؛ وفي لفظتي مُوْت، ومَوْت؛ وطرائق التكلم ذات الرنة المزدوجة تستخدم تلقائياً لدى النساء، واليهود رجالاً ونساءً . أما الرجال المسلمون فليس لديهم عادة سوى أشكال طويلة من الأحرف الصائتة.″

إلا أن تناقضات ذات طبيعة فونولوجية لوحظت لدى قبائل شام cham في فييتنام ( Blood، 1962 ) ، وهنود أمريكا ذوو البطون الكبيرة ( Flannery، 1946 ) ، وشعب الكواساتي Koasati ( Haas، 1944 ) ، وهنود يانا في كاليفورنيا ( Sapir، 1926 ) ، والأسكيمو ( Boas، 1911 ) .

في ختام هذه القائمة غير الشاملة، والتي لها ما يكفي من الدلالة، سأسوق هذه الملاحظة التي وضعها ليفي شتراوس Lévy-Strauss ( 1955، ص . 245 ) ، والتي تدل على أنه طالما فهمت هذه الصُويتات ″المؤنثة″ بوصفها تصنُّعاً، وحكياً متكلفاً أكثر منه طبيعياً لدى النساء : ″الحروف الصامتة لدى قبيلة نامبيكوارا في شمال البرازيل صماء، بحيث تبدو اللغة كما لو أنها مهتوتة أو موشوشة . تتباهى النساء بالإشارة إلى هذه الخاصية، ويشوهن بعض الكلمات ( فتصبح كلمة كيتيتو في أفواههن : كيديوستو ) ؛ وحينما ينطقن من طرف الشفاه، فهنَّ يتصنعنَ نوعاً من الغمغمة التي توحي بالنطق الطفولي . ولفظهنَّ يدل بالتالي على تكُّلفٍ وحذلقةٍ يعينهما تماماً : وحينما لا أفهمهنَّ وأطلب منهن التكرار تراهن يبالغن بخبث في ممارسة أسلوبهن الخاص.″

بمعزل عن هؤلاء وأولئك، أليس من المدهش ملاحظة أن يكون العلماء، والبحّاثة ورجال العلم قد توصلوا إلى نتائج متكافئة تقريباً : حكي النساء شبيه بحكي المتحذلقات المُضحكات؛ وترتبط طريقتهن في التكلم ارتباطاً وثيقاً بأنوثتهنَّ؛ وأخيراً، أليست هذه الطريقة في الكلام هي الجيدة؟

على المستوى النحوي، يمكن فرز الاختلافات ذات الطبيعة الصرفية لدى الكوروكس، في شمال الهند، حيث لا ترتبط اختلافات تصريف الأفعال بجنس المتكلم فقط، بل بجنس المُخاطَب أيضاً ( Ekka، قبسه Key 1975، ص . 73 ) ، أو لدى

قبيلة كوكوما في منطقة الأمازون ( Faust، 1963 ) ، ولدى اليابانيين، حيث يستخدم الرجال والنساء ضمائر مختلفة .

ثمة اختلافات أخرى تتعلق بالاختيار المعجمي . بحسب جاسبرسن ( Jaspersen 1922 ) وهي أن الاختلافات المتعلقة بالاختيار المعجمي سببها التابو ( المحرَّم ) : ".. . إن استخدام كلمة أو كلمات عدة محددة، تفضي، كما تقول الخرافات، إلى بعض الآثار المشؤومة كالشياطين اليائسة، وما إلى ذلك" ( ص . 239 ) .

في الحقيقة، أن فكرة القوة السحرية فعلاً هي التي ترتبط بالأسماء والكلمات : إذ لهذه الكلمات قوة القتل، وإثارة قوى الطبيعة، والقوى الخارقة . ولا يمكن أن يتلفظ بها أحد غيرها – بوصفها قريبة من الآلهة والسلطة – التي من شأنها إتقان هذه السلطة اللفظية . في المجتمعات "الغريبة" – أحياناً هي مجتمعات بلا طبقات، وحيث يتدخل العمر والجنس بوصفهما عاملين توفيقيين – تكون هذه السلطة منوطة بالرجال . أما النساء والأطفال فقدرهم الخضوع للتابو ( المحرم ) ، إذا أرادوا تجنب أثر اللعنة لأنهم اخترقوا قوانين عالم ما فوق الطبيعة!

المثال الكلاسيكي الذي يسوقه اللسانيون كلهم تقريباً، المهتمون بالحكي النسائي هو اللسان الكاريبي في جزر الأنتيل الصغيرة التي صنفها الراهب بروتون، في عام 1664 في القاموس ثنائي اللغة : كاريبي–فرنسي . الرجال هناك يستخدمون تعابير خاصة بهم تفهمها النساء، لكنهن لا يستخدمنها على الإطلاق . في المقابل يستخدمن كلمات وجمل ممنوعة على الرجال وإلا صاروا عرضة للسخرية".. . بعد قدوم الكاريبيين من غويانا أبادوا الآراواك، سكان البلد الأصليين باستثناء بعض النساء اللواتي تزوجوا بهن؛ وهؤلاء النسوة احتفظن، في لهجتهن، بعدد كبير من الكلمات التي تعود إلى لسانهن الأصلي، لا سيما الضمائر المؤنثة، والكلمات الدالة على أعضاء الجسم، أو تلك التي لها علاقة مباشرة بالنشاطات الفيزيولوجية مثل "أكل"، "نام"، "ولَّد"، "سمع"، "رأى"، "دم"، الخ؛ في حين أن هناك كلمات مثل "باب" "صاري السفينة"، "نار"، أو "حجر"، مشتركة بين الرجال والنساء" ( Kassai، 1975، ص.77 ) .

لم يسمح للنساء الكاريبيات أبداً بتعلم مفردات كلمات غامضة لها علاقة بممارسة الحرب لأهميتها . كما لا يفترض بالشباب التلفظ بها قبل إجراء اختبارات الشجاعة والميل الوطني .

يسوق كاساي ( 1975، ص 77 ) حال بعض الجماعات حيث ".. . تُمنع المرأة من التلفظ باسم الزوج، أو بأسماء ذكور العائلة"!

وقد عزز هذه الملاحظة إيستفان ككسيميتي Istvan Kecsemiti ( 1973 ) الذي – عاد إلى قاموس الويرات[(4)] – الروسي المنشور في عام 1974 – فلاحظ أنه يمنع على النساء لفظ الأسماء المستخدمة للإشارة إلى اسم الزوج وأقاربه من الذكور البكر المنحدرين من سلالة الزوج .

كما يشير جسبرسن ( 1922 ) إلى حالة المرأة الزولية [من قبيلة الزولو في أفريقيا] التي تمنع من لفظ اسم حميها، أو إخوته . وعليها أن تستخدم جملاً موازية لكل كلمة، أو جزءاً من كلمة، أو حتى صوتياً له علاقة بالكلمة المُحرَّمَة .

يتكرر الاختلاف بين اللهجات المؤنثة واللهجات المذكرة المشار إليها في الألسن" الغريبة إلى حد ما، بصيغة أكثر خفية في الألسن الغربية أيضاً . من منا لا يعرف المتحذلقات والمسرحية الهامة التي خصهنَّ موليير بها؟ وقد وردت مثل هذه الحالات على شكل حكايات في كتب تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر حيث يشار إلى تلك الخصوصية التي تتمتع بها النساء في تقديمهن للأحرف الصوتية الخلفية .

كتاب توريه Thuret، الموسوم حول النطق الفرنسي De la prononciation francaise يزخر بأمثلة تؤكد هذا التوجه . يؤكد توري Tory في كتابه سيدات باريس، أن الباريسيات، في القرن السابع عشر كن يلفظن "iergon" بدلاً من "Jargon" و"achet" بدلاً من "achat" . وقد جاء في قاموس : Nicot Trésor de la langue francaise ( المنشور عام 1606 ) "كان الفرنسيون يلفظون في الكثير من أقوالهم E بدلاً من A، مثل Eppeler بدلاً من Appeler" ( كاساي، 1975، ص . 75 ) .

ويتحدث إتيين دوليه E.Dolet ( 1540 ) عن لفظٍ مزدوج "للحرف المسمى e : "يقال عن الأول إنه لفظ مذكر، والثاني مؤنث . للفظ المذكر صوت رجولي، أكثر صلابة، ووقعاً . وبعد أن أصبح كلمة تبدأ بحرف صائت فإنه لن يضيع . أما اللفظ الآخر لهذا الحرف فهو مؤنث، أي أنه أخف صوتاً، ويخلو من الحِدَّة.. . وقوته ضعيفة بحيث يمكن إخفاؤه دائماً إذا جاءت بعده كلمة تبدأ بحرف صائت" ( Etienne Dolet، قبسه عنه كاساي، 1975، ص.76 ) .

خلاصة القول هي أن لدى النساء ميل إلى إفساد اللفظ، ويعترف لهن جاسبرسن ( 1922 ) بجزء من الأهمية في التغير اللغوي . وهكذا تكون النساء سبباً في تخفيف لفظ حرف r الذولقي . حينما يكون هذا الحرف أقل ذولقيةً تكون له علاقة بحياة المنزل . بينما تكون ذولقيّة الحرف r طبيعية لمن يقضي جزءاً كبيراً من وقته في الشارع، لأن الحياة المنزلية من شأنها تشجيع العادات اللفظية الأقل قسوة . لهذا يلفظ حرف r بشكل أنعم من الناس المتعلمين في المدن الكبيرة،، بينما في الريف يكون لفظ هذا الحرف أكثر صخباً . في فرنسا، ربما تكون النساء ذهبن إلى أبعد مما ذهبت إليه نساء إنكلترا في لفظ z بدلاً من r . فتصبح كلمة ″chaise″ ″chaire″ . وبحسب سوسير ( 1975، ص.214 ) ، هما لهجتان مختلفتان تعايشت فيهما بعض الألفاظ المعجمية .

أثارت هذه الاختلافات اللغوية عند النساء، التي كشف الألسنيون عنها أعلاه، اهتمام الباحثين ذوي التوجه الأنثروبولوجي أيضاً . إلا أن انتماء بعضهم ( مثل سابير Sapir وهاس Haas، وفلانري Flannery ) إلى النموذج البنيوي(5)، منعهم من أن يروا في طريقة الكلام هذه شيئاً آخر غير وجود اشتقاق من شكل لغوي أول وأساسي - وذكوري - وبالتالي فهو اشتقاق من طريقة ″طبيعية″ في التكلم . وصف سابير ( 1929 ) الأشكال المذكرة في لسان اليانا yana في كاليفورنيا الشمالية بوصفها ″أشكال ممتلئة″ تشتق الصيغ المؤنثة منها - وتنحرف! على الرغم من أن الحكي الذكوري ″لا يستخدم″ إلا بين الرجال فحسب . فحينما يتحدث الرجل إلى امرأة، والمرأة إلى الرجل، أو إلى امرأة أخرى″ فهم يتحدثون بالمؤنث″ . في المقابل، اعتبر هاس ( 1944 ) الصيغ المؤنثة في اللسان الكواساتيkoasati الدارج في جنوب غرب لويزيانا، بوصفها أقدم من الصيغ المذكرة . إلا أن هذه الصيغ أكثر روعةً من تلك، وأن الفتيات قد تخلين عن الصيغ المؤنثة واستعضن عنها بالصيغ المذكرة .

عموماً، يمكن القول إن الألسني والأنثروبولوجي، والإتنولوجي وجدوا أنفسهم مندهشين أمام هذه التجليات المختلفة للفظ الواحد . لكنهم طالما عدّوها أمراً غريباً، أو شيئاً مثيراً للانتباه، أو تصنُّعاً خاصاً بالنساء . وبجعلهم الدور اللغوي للنساء طبيعياً، فقد عزلوا جزءاً من الدارة الاتصالية . واكتفوا بوضع مجرد قائمة بالتواردات اللفظية المؤنثة، وغاب عنهم تماماً وضع تفسير لهذه الظاهرة . لم يبدُ الاستخدام الخاص من النساء للسان قابلاً للاختزال إلى شيء آخر سوى جنسهن، أو سمات الطبيعة الملازمة لجنسهن . وكذلك، فإن تفسير هذه الخصوصية اللغوية، أي الحكي المؤنث، لم يتجاوز،

إلا نادراً، الملاحظات العامة المصبوغة بنمطيات مسبقة[(6)] تساهم مساهمة وثيقة بهذا في تكوين موقف عنصري .

يُنسب الموقف الذي ينطوي على معاملة النساء بوصفهنَّ مجرد كيان بيولوجي، إلى علماء الاجتماع البيولوجيين، وعلماء الوراثة، وعلماء النفس الذين يتبنون علم النفس التفاضلي ويعتمدون أحياناً على أبحاث عصبية لغوية . هذه الأبحاث المعنية ( ماكوبي؛ 1966ماكوبي وجاكلان؛ 1974؛ أوهنو Ohno؛ 1976؛ سوليرو Sullerot؛ 1978؛ كونراد، 1978 ) التي تندرج في إطار النقاش المضاد للمُكتَسَب لصالح الغريزي inné ( نموذج ″يعتمده علم الاجتماع″ ) ( ريفيه 1976، Ruffié ) ، تدور حول هيمنة الأوجه البيولوجية في دراسة حتميات الشخصية البشرية . مما يقوله لنا علم الوراثة أن المفاضلة الجنسية، والانتماء إلى جنس أو آخر فحسب يرتبط بآلية وراثية نوعية تجعل من تطور نوع من الغدة التناسلية gonochorisme خاصاً بتطور الآخر . بحيث يتوقف التفسير الوراثي، ليأتي غيره : على الرغم من التكون الصبغي الأنثوي، فقد أدت اختبارات العلاج بهرمون ذكري testostérone في جنين أنثوي، إلى خصائص تحدد الجنس الذكري : وقد لوحظ، بنحو خاص، أن سلوك الجرذان الوليدة ازداد عدوانية بعد هذه المعالجة ( Hamburg et Lunde، 1966 ) . هذه الاختلافات الوراثية أو الهرمونية أفضت بعدد من الباحثين في العلوم الاجتماعية إلى تفسير تطور الاختلافات الجنسية بين الرجال والنساء من حيث السلوك، ومن حيث ″الطبيعة النفسية″ من خلال تجميل بيولوجي .

فضلاً عن هذا، لاحظنا أن الهرمونات الذكرية التي تجري في دم الجنين، تتوقف في الدماغ . وسمح لنا استخدام الهرمونات الموسومة بمنتجات إشعاعية باكتشافها . يترافق التشَبُّع الهرموني بتغيرات في بنية المناطق الدماغية المعنية، التي تختلف من ثمَّ لدى الذكور والإناث . الاختلافات الجنسية المرتبطة بالاختلافات الموجودة بين دماغ المرأة ودماغ الرجل حيرت عدداً من العلماء . ( دعونا نشير سريعاً هنا إلى آثار علم الأعصاب الفيزيولوجي في العلوم الإنسانية . لم يكن للدماغ ( حرفياً : ″الشيء الموجود في الرأس ″ ) عند اليونانيين القدامى أي أهمية . وأصبح تدريجياً، مقراً لأي ذكاء، وفي الوقت نفسه، المكان الذي يسمح بالكشف عن الاختلافات بين الذكاءات ) . ووضعت علاقات سببية بين الاختلافات الأساسية التي قد تكون موجودة بين الرجال والنساء، والفتيات والأولاد، والاختلافات الجنسية في نصفي القشرة الدماغية اللذين لا

يعملان بالطريقة نفسها لدى الرجل والمرأة . قد يكون الجانب الأيمن، الذي يتحكم بالتصورات المكانية، أكثر تطوراً عند الرجال . النساء "يجدن صعوبة أكثر في تخيل شيء ذي ثلاثة أبعاد انطلاقاً من النظر إلى رسم ذي بعدين" ( سوليرو، 1978 ) . ( عملية مبتذلة إذا قورنت بالعمليات التي تحقق الرؤية المُجَسَّمة stéréoscopique والتي ينفذها الجميع، رجالاً ونساءً، ما إن يفتحوا أعينهم لينظروا . ) في المقابل، فإن الجانب الأيسر من دماغ النساء الخاص بالقدرات اللغوية واللفظية أكثر تطوراً من نظيره لدى الرجال بحيث تتمتع الفتيات بكفاءات أعلى من كفاءات الأولاد في كل ما يختص بالتعبير الشفوي verbalisation!

هنا ثمة ملاحظة تفرض نفسها : قد يتساءل المرء، ما إذا كانت التجارب الهرمونية على الحيوانات، لا سيما الجرذان والأرانب من شأنها تفسير أي طبيعة نفسية ذكرية أو أنثوية حيوانية، لاختلافات اللغة غير اللفظية لدى الحيوانات ( Bateston، 1955 ) ، والقدرات غير المتكافئة في أداء الذكور والإناث . بما أن الأمر يتعلق ببحث حول السلوك الجنسي والوظيفة الإنجابية، فإن السؤال حول مشروعية التعميم على تصرفات أخرى - حيوانية أو بشرية - يبقى مطروحاً .

ثمة سعي من خلال هذه المساعي الرامية إلى تحديد الموقع الوراثي أو الهرموني أو الدماغي للذكاء، ولأي سلوك اجتماعي، إلى إعطائها طابعاً ثابتاً وحتمياً . لكن، إذا كان للاختلافات في السلوك اللغوي طابعاً وراثياً أو هرمونياً مكتسباً، يمكننا مع ذلك التساؤل عن سبب تلاشي هذا التفوق اللفظي الذي تتمتع به الفتيات حينما يتقدمن في العمر ( ينظر، ماكوبي 1966 ) . بماذا تشترك التأويلات التي يقدمها الباحثون حول السلوك الذي يلاحظونه؟

في مقابل هذا النموذج الذي يستخدم البيولوجيا، ثمة نموذج آخر يستند إلى علم الاجتماع الذي يرى أن البنية الاجتماعية، نفسها التي تُنتجُ الصيغ اللغوية المتمايزة هي المسؤولة عن ذلك . وبالفعل، فإن عدداً كبيراً من الألسنيين المهتمين بحقيقة وجود هوة واسعة بين اللسان المعتبَر بوصفه منظومه، والممارسة الاجتماعية ( وهي بهذا تعارض التقاليد البنيوية ) قد أرادوا البرهنة على أن طرائق التكلم - التي بقيت تعدُّ حتى ذلك الوقت حرة وتعزى إلى سمات ذات طابع فردي - أبعد ما تكون عن المصادفة . ولدى تساؤلهم عن المقتضيات الاجتماعية لهذه الاختلافات فقد ربطوا ما يدخل في إطار اللسان

langue – طرائق التكلم اللغوية–، من جهة، بما يدخل في الإطار الاجتماعي – طرائق التكلم الاجتماعية–المنطقية، بوصفها رتبة اجتماعية، والعمر، والجنس، وما إلى ذلك – من جانب آخر . هذا الفرع المعرفي الجديد نسبياً، الذي أطلق عليه اسم علم اللغة الاجتماعي، يضع اللسان في سياقٍ محدد، ويسعى إلى تحديد كيف يمكن لبعض طرائق التكلم، أن تترافق في تغيرها، ببعض طرائق التكلم السوسيولوجية الأخرى . إذاً، علم اللغة الاجتماعي الترابطي، الذي ربما يعد لابوف1972 ،1966 ( Labov ) أبرز ممثليه تأثيراً، يعارض الفكرة القائلة إن تنوع الاستخدامات ليس سوى أمر هامشي . ويرى هذا العلم أن التغير الدائم ملازم لاستخدام اللسان بوصفه موضوعاً أساسياً للدراسة في عملية وصف التغير اللغوي . بينما يُعدُّ هذا التصور للغة الذي يرى عدة صيغ لغوية تتعايش في داخل الجماعة اللغوية الواحدة، من دون أن تطغى أهمية صيغة على الأخرى، تصوراً خلاّقاً بالنسبة للألسنية التقليدية، وتصبح الفرضية القائلة بأن الصيغ اللغوية تقيم فرضية إشكالية ة مع بنية اجتماعية تحتية .

في الحقيقة، ثمة عدد من الباحثين الذين جعلوا العلاقة بين التغير اللغوي والجنس موضوعاً لدراستهم، والدور الاجتماعي المرتبط بجنس المتحدث، أو المُخاطَب عموماً ( ينظر لاحقاً ″الدور الجنسي″ ) . يعد روبين لاكوف 1975 ( Robin Lakoff ) أحد المؤلفين الأكثر تأثيراً في هذا الميدان . فقد حاول في مشروع طموح، بلورة خصائص الحكي الأنثوية الأميركية بربطها دائماً بالمكانة التي تشغلها النساء في المجتمع الأميركي . وتشبه مقاربة لاكوف كثيراً مقاربة جسبرسن بهذا المعنى أي اكتفائه بما يمليه عليه حدسه، وأن الفرضيات التي يقيمها هذا الحدس ناشئة عنه . لكنه يختلف عن جسبرسن، لأن هذه المقاربة لا تعود إلى الأنماط المسبقة حول الطبيعة الأنثوية، بل تبحث عن الحتميات الاجتماعية التي تفضي إلى التكلم الأنثوي خصوصاً، ومن ثمَّ، فهي تلجأ إلى الربط المنتظم بين طرائق التكلم اللغوية و″الدور الجنسي″ للمرأة الأميركية . ويتسم كتابه بأهمية كبرى لدفعه إلى قيام مجموعة من الأبحاث، تسعى إلى تأكيد فرضيات لاكوف وليس نفيها .

ينطلق لاكوف من أن اللسان langue الأول الذي تتعلمه الفتاة الصغيرة والولد الصغير، هو التكلم الأنثوي . وقد وجدت هذه الفرضية أكبر تطبيق شكلي لها في اللسان الياباني، حيث الأطفال من الجنسين، يستخدمون في كلامهم، حتى سن الخامسة، الأدوات نفسها الخاصة بالنساء . وإذا لم يشأ الصغير أن يكون مضحكاً بعد سن الخامسة، يتوقف

عن التكلم كالنساء، ويبدأ باعتماد الأدوات الخاصة بالرجال . ونرى لدى الأطفال الأمريكيين، أن الذكور يبدؤون اعتباراً من سن الخامسة، باستخدام لسان فظ، ويتم قمعه لدى البنات أكثر من الصبيان . ونلاحظ أن الصبيان والبنات وهم في سن العاشرة يتكلمون لغتين متمايزتين . بل يبدو أن الصبيان قد تخلوا عن لغة الأم الأولى التي تستمر البنات في التكلم بها . ويتم تشجيع البنات على الاحتفاظ بها بوصفها علامة على أنوثتهن . وكذلك النساء اللاتي يتعلمن التعبير كالرجال يصبحن ثنائيات اللغة إلى حد ما . لكن الجهد الذي تتطلبه ثنائية اللغة، والكوابح التي تقتضيها متطلبات الأنوثة تمنع إنجاز حكي حر و"ممتلئ" full كما هو حكي الرجال .

التعابير الملموسة لهذا الحكي الأنثوي تتميز من تعابير الحكي المذكر من خلال الاختيار المعجمي وتواتر بعض الكلمات، وبالحالات المناسبة خارج بعض القواعد التركيبية، وأشكال التنغيم .

1/ وجد لاكوف على المستوى المعجمي متضادات في الفروق التي تجدها المرأة بين الألوان . ثمة كلمات مثل "بيج" و"خام"، و"اللون البحري"، و"الخزامى" لا تثير أي انتباه خاص إذا تلفظتها المرأة، في حين أن استخدام الرجل لها يثير الضحك أو يعطي الانطباع بأنه مثليّ! إن تمييز المرأة الدقيق بين الألوان يفسره لاكوف بأن الآخرين لا ينتظرون منها اتخاذ قرار هام – مثل سؤالها عن المهنة التي ترغب في مزاولتها . ولا يتطلب دورهن الاجتماعي منهنَ حسم قضايا أخرى غير تلك التي تنطوي على معرفة ما إذا كان هذا لون خزامي أو خبازي .

2/ يقول لاكوف أن النساء يستخدمن التورية التي لا يرى فيها النحويّ "أي دلالة"،

فالمرأة تقول :

- Oh, dear , you've put the peanut on the refrigerator again

- [عزيزي، لقد وضعت زبدة الفول السوداني في الثلاجة مرة أخرى!]

بينما يقول الرجل :

- You've put the peanut butter in the refrigerator again

- [يا للقرف، لقد وضعت زبدة الفول السوداني مرة أخرى في الثلاجة!]

يحاجج لاكوف بأن هذه التوريات التي لا تخلو من المعنى، لعدم وجود مرجع لها - تحدد السياق الاجتماعي للملفوظ لأنها تُدرج فيه نوع العلاقة بين المتحدث والمخاطَب، وبين المتحدث وموضوع المرجعية . ومع أن النساء يملن اليوم إلى "تذكير" لغتهنَّ، إلا أن التعابير "القوية" والشتائم تبقى خاصة بالرجال، بينما تبقى "الضعيفة" شأن النساء .

الفارق بين "oh dear" و"shit" يكمن في القوة المستَثْمَرَة في ما نقول إزاء ما نشعر به . وبالنتيجة، فإن اختيار الأداة يرتبط بالقيود التي نفرضها على أنفسنا في طريقة استسلامنا لمشاعرنا . ومن ثم فإن قوة الانفعال التي تحملها الجملة ترتبط بقوة الأداة .

3/ يكشف لاكوف عن اختلافات على مستوى المفردات . فقد تكون الصفة دليلاً على استحسان المتحدث أو إعجابه . ويمكن للنساء أيضاً استخدام الصفات التي تتمتع بدلالات حيادية مثل "great" و"terrifie" أو "cool"، أو "neat" كما يستخدمها الرجال على حد سواء . عموماً، إنها تستخدمُ في حالات عمل - ذكورية - على سبيل المثال . في المقابل، ثمة فئة من الصفات التي يقتصر استعمالها على النساء فقط . فإذا تلفظت المرأة بكلمات استحسان مثل : "adorable" أو "charming"، أو "sweet"، أو "lovely"، أو "divine" فلن يكون وقعها مناسباً . ينجم عن هذا أن الصفات "المؤنثة" توحي بأن لا علاقة للمفاهيم التي تحيل إليها بالعالم الذكوري - الذي يتسم بالتأثير والسلطة - وأن ما تستحسنه مبتذل وشخصي؛ إنها تشكل مؤشرات على أن الشخص الذي يستخدمها غير منخرط في العالم الذكوري .

4/ كما يلاحظ لاكوف وجود اختلافات على صعيد النحو . في مواقف المحادثة، ثمة قاعدة تستخدمها النساء هي قاعدة السؤال المعكوس أو tag-question كما يقول الانجليز، والذي يقال بالعربية : " أليس كذلك؟"

التأكيد يدل على أن المتحدث واثق مما يقول، بينما يشير السؤال إلى أنه يسعى إلى الاستعلام . ويبدو أن لجوء المتحدث إلى السؤال المعكوس، كأنه يؤكد، بحسب لاكوف، شيئاً غير مقتنع به تماماً . مثلاً :

تأكيد : جون هنا!

سؤال : هل جون هنا؟

سؤال معكوس : جون هنا، أليس كذلك؟

على الرغم من معرفة المتحدث بأن جون موجود، فهو يسعى إلى تأكيدٍ من مخاطبه كأنه يطرح سؤالاً : نعم – لا .

5/ يكشف لاكوف عن اختلاف له علاقة بالتنغيم intonation . فحينما ترد النساء على سؤال بالتأكيد، فإنهن يعوجن صوتهن وينهين الجواب بنغمة أعلى . هذا الترنيم هو ترنيم السؤال ويمنحه طابعاً متردداً على وجه الخصوص . إنه كما لو كان المُخاطَب – الوحيد العارف بالجواب – يبحث عن تأكيد . وهنا تبلغ الرغبة في عدم الالتزام ذروتها :

( أ ) متى سيكون العشاء جاهزاً؟

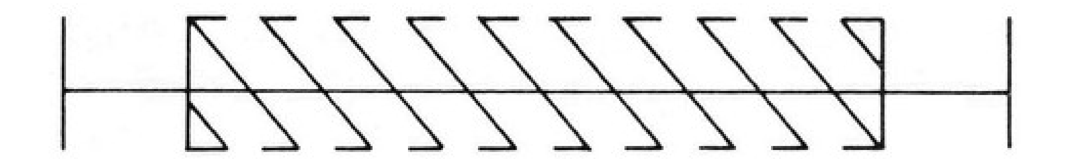
( ب ) أوه.. . نحو الساعة السادسة؟

( ت ) يقول : نعم، الساعة السادسة إذا كنتَ موافقاً، ولكن على ( أ ) أن يؤكد، لأن ( ب ) يبدو غير واثق تماماً .

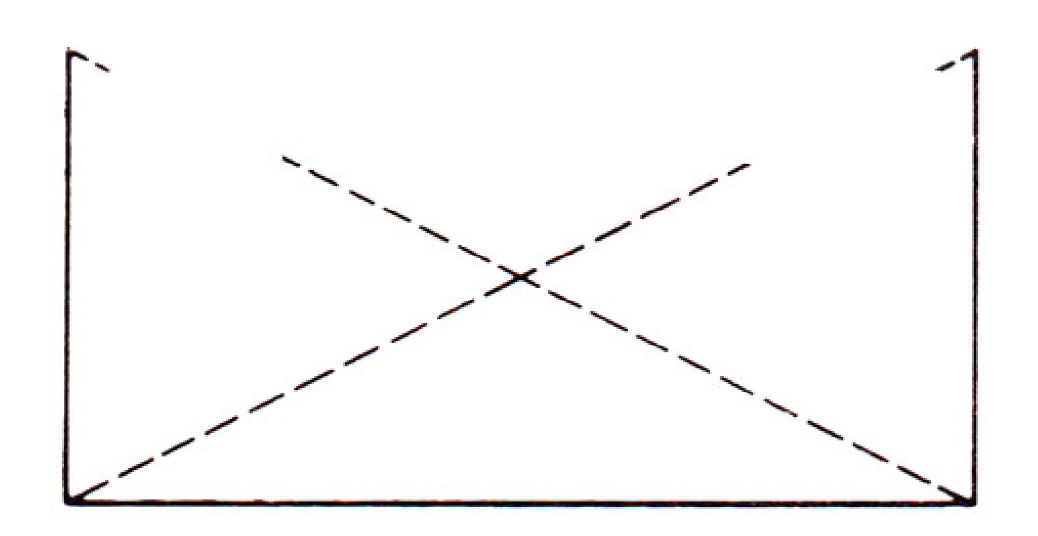
في الفرضيات الثلاث، لا كوف يفترض أن النساء يستخدمن بعض الصيغ اللغوية التي لا يستخدمها الرجال . وكل واحدة من هذه الصيغ من شأنها أن تعكس بعض سمات شخصية المتحدث – التي يفرضها المجتمع إلى حد ما – أي أن المتحدث غير واضح، وليس واثقاً من نفسه . استخدام النساء لهذه الصيغ اللغوية لا يدفع إلى النظر إليهن بعين الجد، وأنه يكلفهنَّ بمسؤوليات حقيقية .

وقد يحكم على النساء انطلاقاً من سلوك لغوي قد يكون مفروضاً عليهن في الحقيقة . تُربى الفتيات على التصرف كسيدات . وعلى لغتهن أن تكون أكثر تهذيباً، وأكثر تقويماً من لغة الصبيان والرجال . تقوم وظيفة هذه الصيغ المهذبة على تخفيف الاحتكاكات والصراعات، وإخفاء الخصومات، والرفض، والاختلاف . لكن، هذا التهذيب الذي تبديه النساء بعجزهن على تأكيد أنفسهن، إضافة إلى استخدامهن للسان يعزز الفكرة المتكونة عنهن .

ربما كانت كاي ( Key 1975 ) أكثر صراحة من لاكوف . إذ أقامت، بطريقة حدسية، علاقة متبادلة مباشرة بين الحكي الأنثوي من جهة، و"الدور الجنسي"، من جهة أخرى ( ينظر الشكل رقم 2 ) لترفض الفكرة" المسبقة القائلة بوجود تعارض محسوم بين التصرفات والاهتمامات



الذكورية والأنثوية. ( الحقيقة أن الترسيمة تبين أن ثمة أشياء كثيرة مشتركة بين الرجال والنساء ) ، وتمثله على شكل مجموعة اتصالية continuum تبدأ بالتصرفات المعتبرة أنثوية حصراً ( كولادة الطفل ) وتنتهي التصرفات الذكورية حصراً، كما في الترسيمة رقم 3 ( ص 36 )



التي تفيدها في بيان التعابير اللفظية المتعلقة بتلك التصرفات . تبدأ بالتعابير الأنثوية حصراً مثل "precious"، و"cute"، و"teeny"، و"oh dear"، و"how perfectly sweet"، مروراً بمفردات جلفة - تكاد تكون ذكورية حصراً - مثل "belly"، و"guts"، انتهاء بعبارات فاحشة ذكورية تحديداً .

ترى كيف تبدو فرضيات كل من لاكوف وكاي، حينما نخضعها للتجربة العملية؟

اختبرَ هارتمان ( 1978 ) فرضيات لاكوف على مادة بحث corpus جمعها في ولاية Maine في الولايات المتحدة، تتألف من فواعل ينتمون إلى فئة اجتماعية–مهنية، من أعمار وأعراق مختلفة، وتوصل إلى النتائج نفسها التي توصل إليها لاكوف .

لكن الاختبارات التي أجراها كل من ديبوا Dubois وكروش 1976 ) Crouch ) كذبت هذه النتائج في نقاط كثيرة . عموماً، ينتقد هذان المؤلفان المسار الحدسي المبالغ فيه الذي اتبعه لاكوف، وأخذا عليه أنه وضع افتراضاته من دون أي أساس . لقد برهنتا، في البداية، بعد اعتراضهما على الفرضية الثالثة التي قدمها لاكوف، بأن الملفوظات التي ينسبها إلى النساء ( " في غالبيتها غير ممكنة سواء لدى المرأة أو لدى الرجل ) بل ذكورية أكثر منها أنثوية . فالجملة التعجبية : "What a divibe steel mill، والجملة "What a groove stell mill" اللتين يعزوهما لاكوف إلى النساء ( 1975، ص . 13 ) قال 22 من أصل 56 طالباً – قاضياً إنها قليلة الاحتمال، إذ عزاها 10 منهم إلى الرجل، و6 إلى المرأة، و18 إلى الجنسين .

اعترضت كل ديبوا وكروش، بنحو خاص على فرضية لاكوف الرابعة المتعلقة باستخدام السؤال المعكوس . فقد انتقدتا التعميم ووظيفته التي تحدث عنها . إذ قد يكون السؤال المعكوس، في الحقيقة، تعبيراً عن طلب . في بريطانيا، هذا السؤال المعكوس يضفي على المتحدث مسحة من التلَطُّف أو التنازل . وفي اللغة الفرنسية "n'est-ce pas = أليس كذلك؟" لا يقوم هذا التساؤل بالدور الذي ينسبه لاكوف إليه .

من جانب آخر، شككت الباحثتان في الفرضية نفسها . وتحققتا منها استناداً إلى مادة بحث كوّنتاها في لقاء مهني بين رجال ونساء في موقف مشابه . الأسئلة المعكوسة الثلاثة والثلاثين لم يتلفظ بها سوى الرجال تحديداً! فاستنتجتا أن الفرضية التي تعزو السؤال المعكوس إلى النساء ليست خاطئة فحسب، بل إن التأكيد الذي يربطه "بدور جنسي" ( ينطوي على تحاشي أي تورط، ويدل على نقص ثقة النساء بأنفسهنَّ ) غير محتمل أيضاً .

والأمر نفسه ينطبق على فرضيات لاكوف الأخرى، لا سيما الخامسة منها . تقول الباحثتان إن الجواب "oh…around six o'clock?" على السؤال : "When will dinner be ready?" لا يمكن نسبته إلى النساء بسبب التنغيم intonation، بل فقط بسبب مضمون الملفوظ، لأن تحضير الطعام فعالية نسائية عموماً .

البرهان على ذلك في الجملة الآتية :

( ك ) : "When are you leaving?"

( أ ) : "oh…around eight o'clock?"

بعد أن عُرضت على 56 طالباً آخر، فقد نُسبت ( أ ) مرتين إلى الرجل، و11 مرة إلى المرأة، ولم تنسب في حالة واحدة إلى الرجل أو المرأة، لكنها نسبت 42 مرة إلى الاثنين .

ثمة تجربة أخرى خاصة بالتنغيم أجراها ماكونيل McConnell، حملت تصويباً آخر للقاعدة التي وضعها لاكوف، والتي تقول بوجود علاقة متبادلة بين الحكي الأنثوي و"الدور الجنسي" . في أحد الاختبارات المزدوجة matched-guise-test، كان ثمة صوت واحد يستخدم مستويات وصيغ تنغيم مختلفة استمع إليه "بعض الحكام=القضاة" . وكان ذلك الصوت يجيب، كل مرة، على السؤال : " When well dinner be ready?" . خلافاً لما قاله لاكوف، فقد قرنَ القضاة الصوت الصاعد بسمات مثل : قابلية العيش في المجتمع، والعاطفية émotivité، والتعاطف أكثر من قرنه بالأنوثة أو ب اللا-ذكورية . عندئذٍ، تبين أن سمات الشخصية والسلوك هي المميزة، وليس السمات المتعلقة بالجنس .

لم تصمد فرضية لاكوف القائلة إن لدى النساء ميل إلى التنغيم في طرح السؤال للتأكيد بعد طرحه ( لانعدام ثقتهن بأنفسهن ) - من خلال رفع مستوى صوتهن عند نهاية الملفوظ - أمام الاختبار العملي في دراسة أجراها إديلسكي Edelsky ( عن ماكونل، 1978، ص.3 ) . مثلاً، حينما اقترب أحد الأجانب من فواعل من الجنسين وسأل عن مكان ولادة كل منهما، أو عن لونهما المفضل، فلم يلحظ أي اختلاف بين الرجال والنساء من حيث التغيرات الصوتية في الإجابات . فضلاً عن هذا، لم يلجأ الرجال والنساء إلا في ما ندر إلى تنغيم صوتهم ( لكن نشير إلى أن الحالة التي أعطيت فيها الأجوبة اختلفت عن تلك التي وصفها لاكوف ) .

إضافة إلى أن العلاقة المتبادلة التي أقامها لاكوف ( والتي تقوم فرضياته كلها على أساسها ) بين اللغة غير المباشرة، والمهذبة، والتي تتحاشى أي مواجهة مباشرة، من جهة، بـ"الدور الجنسي" المؤنث الذي يقول أنها تابعة، وتفتقر إلى الثقة بالنفس قد نفتها

دراسة أجراها كينان 1974 ( Keenan ) في عام 1963، أي قبل أن يضع لاكوف فرضياته .

في دراسة حول الحكي المذكر والحكي المؤنث لدى قبيلة نوموازامانغا، وهي جماعة تسكن جزيرة مدغشقر، بيّن المؤلف، خلافاً للفكرة المقبولة عموماَ، أن التهذيب ليس صفة نسوية عامة . في الحقيقة، نجد لدى هذه الجماعة أن الرجال هم من يستخدم لغة التهذيب، غير المباشرة، ويتحاشون أي صدام مع الآخرين . ولا يُعربون صراحة، وبطريقة مباشرة عما يفكرون به . ولا يطلبون أبداً أن تُسدى لهم خدمة بطريقة مباشرة . إذ يكون طلبهم دائماً منغَّماً ( ملطفاً ) بصيغ غير صريحة تتيح للمُخاطَبِ إمكانية أن يستجيب له أو، بالعكس، إساءة تأويل طلبه ( ما يعني أن المُخاطَب لم يرد أن يفهم ) .

في المقابل، يكون السلوك الاجتماعي للنساء مناقضاً بشكل مدهش لسلوك الرجال، لأنه مباشر وصريح . فلا تتورع النسوة عن انتقاد مخاطبهن بصراحة، ولا يخفين غضبهنَّ . ويتكفلن بزجر الأطفال والاصطدام بالآخرين . وهنَّ من يساومن في السوق – لا سيما الأوروبيين – لأن أزواجهنَّ يضيعون في التفاصيل غير المثمرة، وفوق هذا وذاك فهن يعتبرن أن هذا الاهتمام لا يرقى إلى مستوى كرامتهنَّ . ومع ذلك فإن هذه الهيمنة في بعض الحالات التي تتطلب مقاربة مباشرة، وسريعة، وصريحة لا تمنح النساء مكانة تفوق مكانة الرجل . ولاتحقق لهن صراحتهنَّ هذه أي ميزة في سياق اجتماعي يقدر فن معرفة إخفاء المشاعر . الحكي الذكوري هو الذي له مكانته وهيبته . ويقدره الناس لطريقة إنشائه، ودقته وحساسيته . أما الحكي الأنثوي، فيفيد الرجال كثيراً لدى مخاطبتهم خصومهم – من خلال نسائهم – لكن تقل قيمته لأنه مباشر بالقياس إلى المعيار .

هذه التجارب التي تختبر عملياً بعض فرضيات لاكوف تُبين أن ربط السؤال المعكوس، والصوت المتصاعد، والتهذيب بجنس المتكلم، من جهة، لكنها ليست حتمية من جهة أخرى . العلاقة المتبادلة بين طريقة التكلم اللغوية، التي يُزعم أنها نسائية، و"الدور الجنسي" لا أساس لها من الصحة . وينجم عن هذا أن مكانة طريقة التكلم المستقلة، التي تعزا للجنس أو "للدور الجنسي" في أغلب الأحيان تحتاج إلى أن نعيد النظر فيها بشكل جدي .

كما في أغلب حالات ارتباط المتبادل، يمكن تكذيب تأكيد الحقيقة حالاً بتأكيد العكس. . بعض الأمثلة المضادة توضح تماماً أنه لم يُنظر في قضية العلاقة بين اللسان والجنس، إلا قليلاً . فكل واحد، وواحدة يضع "معرفته الفلكية astrologie"، ويبني نظرية متجانسة انطلاقاً من عناصر غير متجانسة بشكل أولي، بالنسبة للجميع . وكون أن البعض يستعين بدقة معرفته الشكلانية، ويعتمد الآخرون على حدسهم لا يغيّر شيئاً في حقيقة أن لدى الألسنيين، وعلماء الأعراق éthologue، والإناسيين anthropologues، وعلماء الاجتماع التوجه نفسه في تحييد الدور اللغوي للمرأة، والاعتراف بالانتماء إلى الجنس الأنثوي بوصفه هوية أولى . تتميز هذه المقاربات المتعلقة باللسان والجنس بالاعتراف بالاختلافات، ووصفها ثم تفسيرها لاحقاً بالطبيعة الأنثوية أو بالحتميات الاجتماعية – أو نفي هذه الفرضية أو تلك الخاصة بهذه الاختلافات – .

## 2 . فرط التصويب ( الحذلقة ) hypercorrection

يبدو إن النظر في السمات التمييزية لطرائق التكلم الأنثوية التي من شأنها تقديم مؤشرات دالة اجتماعياً، يسير في اتجاه الفرضية، التي غالباً ما صيغت للهجات الغربية القائلة إن النساء يعرفن المستوى المعياري للسان ومعاييره الهامة أفضل من الرجال، كما يعرفن احتمالاته التطورية .

ليس سراً أن النساء لا يقلدن حكي الرجال العامي . فلغتهنَّ الأنيقة تستبعد الشتائم والكلمات الفاحشة من مفرداتهنَّ . ويبدو أنهن يفضلنَ الإفراط في الاختلاف وفرط التصويب ( الحذلقة ) اللذين يندرجان غالباً في نزعتهن المحافظة، ويعدان أيضاً مصدراً للتجديد . بالفعل، فقد عُدَّ المظهر المفرط في تصويب الحكي الأنثوي، وهذا اللفظ الجميل الذي هو اللفظ الأفضل، عُدا مسؤولين عن اعتماد النساء لإنجازات جديدة التي تسرع في القضاء على اللهجات، وهي أحياناً علامة على نزعتهن المحافظة على الصيغ القديمة، بل والمغرقة في القدم ( Houdebine 1979؛ Jespersen، 1922 ) .

الأبحاث التي أُجريت في مراكز مدينية في الولايات المتحدة ( Shuy، Wolfram، و1967 Riely، 1969؛ Wolfram، 1968؛ Fasold 1968؛ وغيرهم.... . في السويد

وإنجلترا حول طرائق التكلم الصوتية والفونولوجية تدل على ميل النساء إلى استخدام طريقة التكلم المحترمة في سياق اجتماعي محدد .

بعد أن نسخ ترودغل 1975 ) Trudill ) منهجه عن منهج لابوف Labov، راح يدافع عن الفكرة القائلة إن النساء أكثر الناس وعياً بالصيغة المعيارية، ويستخدمنها أكثر من الرجال بتواتر . يبين المؤلف في حالة اللاحقة suffixe – ing أن إنكليزيات منطقة نورويتش Norwich يلفظنها – [In] وهي الصيغة المحترمة التي يستخدمها الرجال الذين لهم العمر نفسه وينتمون إلى الطبقة الاجتماعية نفسها . وبالفعل، فهؤلاء يلفظون – in[en˜n]، مما يدل على تفضيلهم للصيغة الشعبية والرخوة .

يفسر ترودغل فرط التصويب ( الحذلقة ) الذي تتبعه النساء بعدم شعورهن بالأمان اللغوي، ووضعهن الاجتماعي التابع للرجال، والذي يسعينَ إلى "تحسينه" لغوياً بإيلاء مزيد من الأهمية إلى الحكي الصحيح والمحترم أكثر من الرجال .

في المقابل، فإن الرجال الذين تم تقييمهم وفقاً لمعايير موضوعية، مثل معيار الفئة الاجتماعية–المهنية، أو مستوى الأجر، فلا ترتبط مكانتهم الاجتماعية بالانتماءات الخارجية كما هو حال النساء، وليسوا بحاجة إلى استخدام الحكي المعياري . بل بالعكس، فإن اللامبالاة التي يعبرون بها عن أنفسهم تمنحهم الأهمية طالما أن اللغة "الأقسى" توحي بمزيد من الرجولة .

هنا ثمة ملاحظتان تفرضان نفسيهما : فمن جهة، ماهي الأسس التي أقام عليها ترودغل معادلته : فرط التصويب= غياب الأمان اللغوي . كيف يمكن لفرط التصويب ( الحذلقة ) أن يكون علامة على عدم الأمان اللغوي؟ أليس العكس هو الصحيح؟ أي فرط التصويب بالمعنى الذي يرمي إليه كافكا في كتابه المحاكمة، ليصف سلوك الأجنبي . فالأجنبي الذي استوعب المعايير الثقافية للمجتمع الذي يريد الاندماج فيه ويسعى إلى قبوله به، لا يتبنى هذه المعايير فحسب بل يزيد من حدتها أيضاً . وبسلوكه المتطرف هذا، يعترف بأنه ليس جزءاً منه . يبدو لي أن الإفراط في التصويب لدى بعض النساء ظاهرة ذاتية من الإفراط في التكيُّف، ولا يمكن تفسيرها بأي شعور بعدم الأمان اللغوي أبداً .

من جانب آخر، حينما نقابل التعميمات التي يلجأ إليها بعض الألسنيين تفقد قيمتها التفسيرية لدى مقابلتها بالنتائج التي توصل إليها فاسود 1972 ) Fasod، استشهد به

نيكولز Nichols، 1978، ص.4 ) في دراسته لإحدى الجماعات السوداء في واشنطن، DC . يرى فوساد غياب التناقضات اللغوية بين الرجال والنساء، وأن الرجال هم الذين يستخدمون الحكي المعياري وليس النساء . كما تصف كينان 1974 ) Kennan ) المذكورة آنفاً القدرة التي يتمتع بها رجال تلك الجماعة المدروسة على تحاشي أي مواجهة لفظية مباشرة مع الآخرين، ما يعني انخراطها في المعيار المهيب الذي تفتقر إليه النساء .

لهذه الحجج المضادة أهمية تمكننا من ملاحظة أن ظاهرتي التصويب والألفاظ المهجورة، يمكن أن تبرزا في الجماعة الواحدة، أي أن النساء يستخدمن المعيار بمقدار ما يستخدمن طريقة التكلم المهجورة . ولاحظ نيكولز ( 1976 ) في أحد أبحاثه الذي خص به إحدى الجماعات في جنوب الولايات المتحدة، أن الشابات من النساء ومثلهن من عمر متوسط، يتقاسمن صيغاً قديمة - أي طرائق كلامية خليطة créoles في اللغة الانكليزية - للتكلم بالطريقة الأقرب إلى المعيار، وأن أكثر طريقة يشجبها أفراد الجماعة هي تلك التي تمارسها مجموعة صغيرة من السيدات العجائز، اللاتي لم يحظين بتعليم شكلي ويشغلن وظائف لا تتطلب طريقة معيارية في التكلم، كبائعات أو مستخدمات حيث تشيع طريقة التكلم المعيارية .

تبين هذه النتائج بوضوح أن إفراط النساء في التصويب واستخدامهن لصيغ مؤثرة لا يمكن تفسيره ب″ شخصيتهن″ الخلاّقة والمحافِظة ولا ب″ دورهن الجنسي″ فقط .

كان نيكولز محقاً في إشارته إلى أن اصحاب الأبحاث التي أجريت في مراكز حضرية لا تقتصر على الاستعانة بمعايير منظومة التصنيف الاجتماعي المستخدمة في علم الاجتماع فقط . إنهم يرثون منها العشوائية! أيضاً - لاعتبارهم أن العائلة تمثلُ الوحدة الاجتماعية الأساسية - فهل تصنَّف الزوجات تبعاً للفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها أزواجهنَّ، والأرملة تبعاً لفئة زوجها الراحل، والعازبات تبعاً لفئة الأب - أم تبعاً لمهنتهن في أسفل السلم الاجتماعي ( أو بكل بساطة، لا تهتم الأبحاث بهن لوجود ثمة مشكلة في تصنيفهن ) ، مع أن خُمسيّ العائلات لم يكن لهن رب أسرة ذكر في عام 1964 ( واتسونWatson وبارث Barth، 1964، بحسب نيكولز، 1978، ص.6 ) . أولئك المؤلفون الذين يزعمون، ضمناً، أن التجارب اللغوية لهؤلاء الرجال والنساء المجموعين

في طبقات اجتماعية هم أنفسهم، ينسبون إلى ″الأدوار الجنسية″ كل تضاد يلاحظونه في طرائق تكلمهم .

لكن هوغ ( Haug 1969، نقلاً عن نيكولز، 1978، ص.6 ) بين في تحليله لدراسة أُجريت لصالح وزارة العمل في الولايات المتحدة أن هذا المسار يقود إلى ارتكاب أخطاء في تصنيف ثلث العائلات . ففي أسفل السلم الاجتماعي تحتل الزوجات غالباً وظائف أجرها أفضل من أجر أزواجهن، لا سيما أن مستوى تعليمهن أعلى . وإذا استثنينا الجيل الأقدم، فإن نصف الرجال المتزوجين من نساء يعملن خارج المنزل، يحظون بتعليم أقل جودة من تعليمهن . وجميع الوظائف التي تشغلها النساء تقريباً تتطلب نوعاً من التمكن من الكلام والكتابة ( والكتابة هنا تعني الكتابة المعيارية ) . فالبائعات والموظفات أكثر تفاعلاً مع جمهور متنوع جداً، والمعلمات أو مربيات الأطفال يحتجن إلى مستوى من التعليم أعلى من مستوى الرجال الذين يعد الطلب عليهم أقل لممارسة مثل هذا النوع من الأعمال .

بالنتيجة، تقول نيكولز إذا كانت النساء يستخدمن صيغاً أكثر هيبة من تلك التي يستخدمها الرجال الذين لهم العمر نفسه وينتمون إلى الفئة الاجتماعية نفسها، فليس ذلك بسبب فرط تصويبهن الغريزي او المكتسب، بل بسبب الطبقة الاجتماعية التي وضعن فيها . وبالتالي، علينا النظر في العوامل المؤثرة في الحركية الاجتماعية والاقتصادية للنساء، لأن تجاربهن ضمن الفئة الاجتماعية نفسها يمكن أن تختلف كثيراً وتؤثر في استخدامهن لصيغ رفيعة وكذلك تخليهن عنها .

عموماً، يمكن القول إن المقاربات اللغوية للسان والجنس تستعين غالباً بتفسيرات مناسبة تستخدم نماذج سوسيولوجية ليست دائماً الأكثر ملاءمة . النتائج التي توصلت إليها نيكولز، على سبيل المثال، تبين الطابع العشوائي للمتغيرات المُختارة، وتبين أن ثمة علاقات متبادلة غالباً ما تقوم تبعاً للافتراضات المسبقة حول الطبيعة الأنثوية، هي علاقات ضمنية .

لا شك أن تفسيرات نيكولز تحسّنُ قضية الترابط بين اللغة والمجتمع، ولكن سعيها إلى استبدال المؤشرات الاجتماعية ″التقليدية″ بعوامل أخرى - خارجية عن الفرد - لا يجعل مقاربتها منفصلة عن نموذج معين يتصف بإقامة علاقة سببية مباشرة بين المحرّض ″الخارجي″ والاستجابة ″الداخلية″ لتفسير الاختلاف بين طرائق التكلم الذكورية والأنثوية

. ولم تتوصل الدراسات السوسيولوجية إلى بيان كيف يمكن للمحرضات الخارجية نفسها أن تُنتجَ استجابات مختلفة – استجابات "ذكورية" و"أنثوية–" .

## 3 . اللغة في سياق محدد

صحيح أن وصف الاختلافات اللغوية بين الرجال والنساء لا يكتسب أهميته إلا بوضع فرضيات تسمح بمعرفة دلالة هذه الاختلافات سواء بالنسبة للمتكلم أو للمخاطَب .

لكن ثمة تعميماتٍ أُطلقت بشكل متسرع استناداً إلى اختلافات تمت ملاحظتها – تعزى إلى جنس المتحدثين – لدى جماعة معينة ( سواء في وسطٍ طبيعي أم في المخبر ) وأدت إلى مقابلة لغة النساء بلغة الرجال . وجرى الحديث عن أمور سطحية بدلاً من التساؤل عن الأسباب العميقة .

لقد واجه النموذج الترابطي corrélationniste، الذي يعتبر اللغة بمثابة عَرَضٍ لبنى مجتمعية تحتية – وبالتالي عرض للتقسيم الجنسي – والفرد بوصفه "آلة للإجابة"، واجه انتقادات الباحثين، لا سيما الأمريكيين منهم[7] الذين استوحوا أعمالهم من المسار التجريبي :

1 ) من مدرسة علم الأعراق ( اتنوغرافيا ) الاتصالي التي يعد ديل هايمس Del Hymes ( 1972 ) زعيمها . يرى هؤلاء العلماء أن اللغة ليست حاملة لمضمون فحسب، بل هي مضمون في حد ذاتها ( مشاعر مختلفة، عداوات، صداقة، تهذيب، قلق ) ، وإنها فعالية activité أساسية بالنسبة للفرد . وهم يفترضون أن العاملين اللغوي والاجتماعي – الثقافي ليسا فئتين مترابطتين، بل متداخاتان تماماً . في الوقت الذي يطرح فيه علماء اللغة الاجتماعيون، مثل لاكوف سؤالاً مثل : "من يتكلم ماذا؟" فإن النموذج الذي يطرحه ديل هايمس ( 1972 ) يهتم بالمظهر البنيوي – الذي يقتضي دراسة مختلف مكونات فعل الاتصال : "من يتكلم مع من؟، ومتى؟، وأين؟ وحول أي موضوع؟ وكيف؟" – والمظهر الوظيفي – الذي يقتضي دراسة وظائف اللغة : "لماذا؟ "[8]

2 ) من المنهجية الأعراقية ethnométhodologie، القريبة من مدرسة علم الأعراق الاتصالي الذي يعد كل من ساكس ( Sacks 1972 ) ، وشيغلوف ( Sdhegloff 1972 ) ، وجيفرسون ( Jefferson 1973 ) وغارفينكيل ( Garfinkel 1976 ) أهم ممثليه . والموضوع الذي تدرسه المنهجية الأعراقية هو المحادثة نفسها، والقواعد الضمنية التي تحكم أي تفاعل صغير . استناداً إلى المبدأ القائل إن اللغة عبارة عن فعالية، فقد انطلقوا من وجود توافقات عامة تتحكم بالمحادثة التي يفترض بالمتخاطبين أن يتقيدوا بها ليتحقق التواصل الحقيقي بينهم . أكثر هذه التوافقات عمومية هي أن "على المتحدث أن يختار خلال المحادثة، اللحظة التي يتحدث فيها وطريقة حديثه تبعاً لمسار المحادثة في الاتجاه الذي وضعت فيه" ( غريس Grice، 1975، الترجمة ) . إن مداخلات المتخاطبين – حيث يتكلم أحدهم بينما يستمع الآخر لتحقيق نوع من تجانس الخطاب – مترابطة بعضها ببعض . لكن غالباً ما يخترقها أحدهم بمقاطعته الآخر .

إن رفض أصحاب المنهجية الأعراقية، وعلم الأعراق الاتصالي النظر إلى اللغة في حد ذاتها، يجعلهم يأخذون مظهرها البراغماتي بعين الاعتبار، أي سياقها . ويسوغون ذلك بأن الملفوظ لا يلفظ في فراغ، بل في حالة محددة لهدف معين . فما هو المتغير المحكي وممن ولماذا؟، أو "من يقاطع من؟ كلها أسئلة لا ترتبط بجنس المتخاطبين فحسب، بل بعمرهم، وبطبقتهم الاجتماعية، والأصل العرقي، والتموضع الجغرافي، وكذلك بالسياق الاجتماعي، أو التفاعلي للملفوظ . التجربة التي أجراها ماكونيل MacConnell ( 1978 ) والتي سبق وصفها، تبين على سبيل المثال، أن التنغيم الذي وصفه لاكوف بأنه أنثوي، لا يعزى بالضرورة إلى المخاطب تبعاً لأنوثته، بل بالأحرى لوضعه الاجتماعي، أو انفعاليته، بصرف النظر عن كونه رجلاً أم أنثى . والنتائج المتعارضة تماماً التي توصل إليها كل من جاسبرسن ( Jespersen 1922 ) ، وكينان Meenan ( 1974 ) تبين أن اكتساب بعض الصيغ اللغوية لا يمكن أن يدرس من زاوية سكونية للفئات الجنسية بوصفه تقسيماً تشريحياً . بل ينبغي ربطه بسياقٍ اجتماعي–ثقافي محدد تماماً .

إن المفاهيم الدلالية لفكرة "السياق الاجتماعي" متنوعة . كما في الفندق الاسباني، حيث يجد فيه كل شخص فيه ما يحمله إليه . وقد بحثت عن نقاط التقائها وحاولت رسم حدودها :

أ/ بمعنى أوسع، يتماهى السياق الاجتماعي مع الجماعة اللغوية ( ويرث عنها إبهام مضمونها ) . نطلق اسم السياق الاجتماعي على تجمعٍ جغرافي يضم رجالاً ونساءً من فئات عمرية مختلفة، ولون وأصل عرقي مختلف، ويشغلون شريحة معينة فوق فضاء لغوي، ويتمتعون في داخله بخيارات لغوية – حقيقية أو افتراضية – مختلفة . إضافة إلى أن الحالات الملفوظية فيها ليست ناتج متغير واحد – الجنس – بل محصلة هذه العوامل كلها .

في هذا المنظور، يندرج البحث الذي قام به نيكولز ( 1978 ) لدى جماعة حضرية سوداء في جنوب الولايات المتحدة . في كنف هذه الجماعة "لا تعمد" النساء إلى اختيار المعيار، أو المتغير المهجور بسبب جنسهنَّ، بل تبعاً للخيارات المتوفرة للنساء ضمن هذه الجماعة اللغوية . لاحظ نيكولز الطريقة التي تتكلم النساء بها في مواقف ملفوظية مختلفة، واقترح تحديد المعايير الآتية :

ب/ السياق الاجتماعي، بمعناه الضيق، هو حالة الملفوظية نفسها التي يتفاعل الرجال والنساء فيها، ويتناولها التحليل فقط . فنتعرَّف على دلالتها :

- من زاوية علم الأعراق الاتصالي، إذا عرفت وظائف ومكونات الحالة، التي يتفاعل فيها الرجال والنساء . وتبين التجربة الآتية أن الاختلافات بين طريقة التكلم الذكورية والأنثوية تندرج في سياق معين؛ وهي لا ترتبط بجنس المتكلمين فقط .

سعى هاس ( 1978 ) إلى سبر السمات المقترنة بالجنس، في الطريقة الشفوية التي يتكلم بها أطفال تتراوح أعمارهم بين ثماني سنوات واثنتي عشرة سنة، فبين أن لغة الأطفال تتغير حينما يجدون أنفسهم في حالة تفاعل مع شريك من الجنس نفسه، أو مع شريك من الجنس الآخر .

في غرفة مجهزة بطاولة، وكرسي، وسبورة سوداء، وطباشير، الخ . جلس أربع فتيات وأربعة صبيان من كل فئة عمرية، ورفاق الصف بشكل ثنائي، أي كل طفل مع طفل آخر من الجنس نفسه، أو كل طفل مع طفل من الجنس الآخر . وكانوا أحراراً في القيام بما يحلو لهم ( بانتظار الانتقال إلى الفعالية التالية ) . تم تسجيل تفاعلهم في آلة تسجيل وجهازفيديو . أُخضع مائة ملفوظ لكل طفل للتحليل تبعاً لشكلها ( أصوات، كلمات وطرق تركيب الكلمات ) ، ومحورها ( موضوع المحادثة ) ، ومضمونها (

طريقة الرجوع إلى موضوع المحادثة من خلال تقييمه، أو نسبة إلى صفات إدراكية ووظيفية، ووضعها في الزمان والمكان ) ، واستخدامها ( تقديم وأخذ معلومة، الطلب بشكل مباشر، أو غير مباشر، الإيحاء، القلب، الخ. ) .

لدى مقارنة ثنائيات البنات مع ثنائيات الصبيان، لوحظت اختلافات على صعيد المضمون، وموضوع الإحالة، ولدى مقارنة البنات بالصبيان ضمن الثنائيات المختلطة، سجلت اختلافات على صعيد موضوع الإحالة، والشكل، والاستخدام .

يتكلم الصبيان، في ما بينهم، عن الرياضة . وحينما يتكلمون عن شيء معين تراهم يرجعون إلى الزمان والمكان أكثر من البنات . في المقابل، تتكلم البنات أكثر عن المدرسة، وعن رغباتهن وحاجاتهن . وفي الثنائيات المختلطة ترى البنات يتحدثن عن الرياضة أكثر مما يتحدثن عنها بين بعضهن، ولكن في كل الأحوال، يبقى حديثهن أقل من حديث الصبيان عنها . وحينما يتواجد الصبيان مع البنات تراهم يشرعون بالحديث عن المدرسة، لكن أقل من حديث البنات عنها . إذن يتكيف الصبيان والبنات ويغيرون موضوعات المحادثة تبعاً لجنس الشريك .

كما تم الوقوف على اختلافات تتعلق بالشكل، ولها علاقة بحالة الملفوظية . فترى أن ضحك البنات يزداد بحضور الصبيان، كما تزداد آثار الصوت لديهن . في المقابل، يقل ضحك الصبيان بمقدار مرتين أمام البنات! أما في ما يتعلق بالفصاحة اللفظية لدى البنات، فيلاحظ هاس Haas أن الملفوظات التي تتداولها البنات في ما بينهنَّ أكثر طولاً من الملفوظات التي يتداولها الصبيان في ما بينهم . لكن حينما يكونون في ثنائيات مختلطة، تتحول هذه "الميزة" لصالح الصبيان .

يستخلص هاس أن اختيار موضوعات المحادثة وطريقة الإحالة إليها يقترن بجنس المتكلمين، بينما يرتبط استخدام الصبيان والبنات للغة كلياً، بحالة الملفوظية . في الحالة المُختلطة، يسلك الصبيان سلوك المهيمنين، ويقدمون التوجيهات والمعلومات . في المقابل، البنات يخضعنَ، ويمتثلنَ لمتطلبات الصبيان . ولا يصبحن موجِّهات إلا حينما ينفردن بزميلاتهن، أكثر من الصبيان بمرتين حينما يكونون مع زملائهم الذكور .

- من زاوية المنهجية الأعراقية، يفترض أن تكون القواعد التي تحكم التفاعل معروفة . وقد عارض الباحثون الأقرب إلى المنهجية الأعراقية ( نذكر منهم زيمرمان Zimmerman، وويست West، 1975، لاستحالة ذكرهم جميعاً )

تفسير التضاد تبعاً لجنس المتخاطبين البيولوجي، من خلال البحث عن السبب الحاسم في الحالات التي تحددها المكانة الاجتماعية التي يحتلها المتخاطبون والعلاقة التي يقيمونها بسبب أدوارهم . فيقولون إن علاقات السلطة والهيمنة تؤثر في التفاعل بين البيض والسود، وبين البالغين والأطفال، وبين الرجال والنساء . وتوزيع السلطة ضمن بنية العمل، وتقسيم العمل ضمن العائلة، وفي سياقات مؤسسية أخرى من شأنها أن تندرج في التفاعل اليومي . إضافة إلى أن غياب التبادلية في الطريقة التي ينادي بها رب العمل-مخاطبته لسكرتيرته باسمها - تُنسب إلى جنس المتخاطبين أكثر من نسبتها إلى مكانتهم الاجتماعية وعلاقة التبعية التي تجد السكرتيرة فيها نفسها بالنسبة إلى رب عملها .

عمل كل من زيمرمان وويست في دراسة لهما ( 1975 ) على موضوع غياب التماثل بين الرجال والنساء . افترض الباحثان أن علاقات السلطة والهيمنة التي يمارسها الرجال في سياقات أخرى، وتنعكس على طريقة كلامهم مع من هم أدنى منهم مرتبة - كالمقاطعة أو السكوت - يمكن تطبيقها على أشكال التفاعل مع النساء، ولهذا قاما بتسجيل محادثاتٍ في أمكنة عامة، لأحد عشر زوجاً من الرجال والنساء، وعشرة أزواج من عشر نساء تتراوح أعمارهن بين العشرين والخامسة والثلاثين، يعرفن بعضهن جيداً إلى حد ما وتربطهن علاقات صداقة عميقة إلى حد معين .

ولوحظ، في الأزواج رجل - رجل، أو امرأة - امرأة، حدوث سبع مقاطعات، أما في الأزواج المختلطة فإن ال48 مقاطعة التي تم حسابها كانت من نصيب الرجال . ولم تعترض النساء، أو سعين إلى استئناف كلامهن فوراً .

التجربة نفسها أجريت على ثنائيات مكونة من أطفال وبالغين، أدت إلى نتائج مشابهة، فاستخلص زيميرمان وويست أن الأشخاص ذوي المكانة الاجتماعية الأعلى ينجحون في أغلب الأحيان في مقاطعة ذوي المكانة الدنيا .

اعترض ألغوير Alguire ( 1978 ) على هذه الفرضية الأولية التي وضعها الباحثان المذكوران ( القائلة إن كل مقاطعة للحديث من قبل المُخاطَب تعد بمثابة مؤشر هيمنة على المتكلم، وتأكيد، وسلطة وتحكم بالتفاعل الذي يجري وجهاً لوجه ) بقوله أن المقاطعة لا تعد بمثابة تجاوز لقواعد المحادثة بل :

أ ) تعبير عن رضا حماسي إزاء ما تلفظ به المتكلم .

ب ) تعبير عن اهتمام المُقاطِع الذي يود بمقاطعته المشاركة بفعالية في موضوع المحادثة .

ت ) رغبة بوضع وتقديم موضوع المحادثة الذي يقترحه ″من يُقطَعُ كلامه″؛

ث ) فكرة يريد المتكلم إضافتها فجأةً، في الوقت الذي استأنف المُخاطب كلامه بدوره، فيستأنف ويلخص ما قيل؛

ج ) مؤشر على أن المُخاطب يرغب في الكلام؛

ح ) كون ″المُقاطِع″ يخطئ بزعمه أن المتكلم قد أنهى جملته . ينجم عن هذا أن الاثنين يتكلمان في الوقت نفسه خلال فترة معينة .

خ ) مقاطعة تسمح للاثنين بالتكلم سوية من دون أن يعترض هذا أو ذاك . وبالتالي فالاثنان يتحدثان ويصغيان في الوقت نفسه .

يؤسس ألغوير تأكيداته على مادة بحث corpus مؤلف من خمسة وعشرين ساعة من محادثة غير رسمية سجلت لأزواج من رجال ونساء . وكان لا بد لهم من أن يستمعوا إلى المحادثة التي تضمنت 60 مقاطعة، اعتُبر أربع منها فقط بمثابة تدخُّل، أو إلزام أو خرق .

صحيح أن إيلاء الأهمية للمظهر البراغماتي للغة، أي ظروف الملفوظية، أمر هام لما يقتضيه من تحوّل في منظور النموذج السكوني والحتمي تماماً إلى نموذج أكثر ديناميكية تندرج اللغة فيه بوصفها فعالية تؤمن للفاعل القدرة على التفكير والاندماج . لكن، حتى لو وجد الفاعل نفسه – في نموذج جديد – متحرراً من قيوده البيولوجية والسوسيولوجية، مادام لا يقوم إلا بالاندماج في حالات، أو في سياقات تفاعلية – خارجية عنه – ، فإن تغير المنظور هذا لا يقتضي إلا تغيراً في الدرجة، وليس في الطبيعة . ويتقلص هامش الحرية الذي يتمتع به الفرد بسبب القيود الحتمية التي تفرضها الحالة أو يحددها السياق . وبالفعل، فإن القبول الوثيق للحتميات الاجتماعية في النموذج الجديد يخلي مكانه لقبول أوسع، فلا نعود ننظر إلى العامل الاجتماعي من حيث التكيُّف الاجتماعي، بل بوصفه دمجاً لحالات متشظية ( مُذَرَّرة ) فحسب، فنشهد، في حقيقة الأمر، نوعاً من النسبية الحالتيّة، حيث لا تعود ″المسؤوليات″ قابلة للتوزيع، لأنها ذابت

في غموض مرن : سواء أكانت الحالات أكثر ماديةً، لأنها تُحدد تبعاً لعوامل ووظائف تدخل فيها، أو أكثر تجريداً، كتلك التي تتصفُ بعلاقات التبعية، والهيمنة والسلطة .

تبرز في نموذج دعاة الترابط كما في نموذج أعراقيي التواصل ethnographes، وجماعة المنهجية العرقية ethno méthodologues، ظاهرتان في آن واحد ( الدور الاجتماعي، وهو حالة أو علاقة بسلطة الفرد وسلوكه ) دُرستا معاً كما لو انهما لا تختزلان ببعضهما . ويربط بينهما تعريف إحداهما بوصفها السبب، والأخرى بوصفها النتيجة، من خلال وضع نظام هرمي يقول إن الأولى سابقة، ويوضح هذه الأسبقية بالحتميات الاجتماعية : الدور الجنسي، والحالة أو المكانة الاجتماعية .

نلاحظ أولاً، أن النماذج والنظريات الواردة أعلاه تتميز بجانب سلوكي behavioriste، حيث لا يبدو الفرد سوى قادر على القيام برد فعل على محرضٍ، مشابه لنفسه باستمرار . هذه الممارسة تستند إلى الفرضية القائلة إن الترابط - سواء أكان سكونياً أم لا - بين متغيرين هو دائماً علامة على علاقة سببية بين المتغيرات . وهي ممارسة تذكرنا بقصة تلك الفتاة الصغيرة التي تقدم تفسيراً للريح، التي تقول نظريتها إن الأشجار تدفع أوراقها إلى الارتجاف، فتتشكل الرياح .

نلاحظ، ثانياً، وجهاً ذا طابع عنصري : فوراء هذه الأبحاث كلها تصور اجتماعي للاختلاف . وتتبلور الملاحظات حول كلمات مفتاحية ( ميزونوف Maisonneuve، 1978، ص.16-17 ) بوصفها فرطاً في التصويب اللفظي، ومقاطعة، وثرثرة، تتطور حتى تصبح رمزاً لفئة "النساء" . وبلغ الأمر بالتصور المسبق إلى تحديد سلسلة من التقسيمات catégorisation، أو نسبة سمات خاصة إلى المرأة على أساس انتمائها البيولوجي والاجتماعي فقط . يمكننا إذاً ملاحظة أن الاختلافات ذات الطبيعة اللغوية تختلط بالاختلافات ذات الطبيعة الجسدية؛ وهذه الاختلافات تؤدي لاحقاً إلى كثير من الملاحظات .

---

(1) - منذ بلومفيلد ( 1958 ) صار ت الجماعة اللغوية تعرف بأنها الجماعة من الناس التي تستخدم منظومة العلامات اللغوية نفسها .

(2) - يرى منظرو الملفوظية أن هذا التمييز عبارة عن حشو طالما أنهم يعتبرون أن اللغة عبارة عن سلوك .

(3) - تروبيتسكوا ( 1970 ) يفصل بشكل دقيق في ما يسميه "علوم الصوت اللغوي" بين علم أصوات الكلام ( phonétique ) - الذي يُعنى بالصويتات المادية الملموسة والذي ينبغي أن يستخدم طرائق العلوم الطبيعية -

وعلم أصوات اللسان ( phonologique ) - الذي ينبغي أن يستخدم طرائق محض لغوية ونفسية، وسوسيولوجية ( لم يجد فردينان دو سوسير ( 1975 ) ، الذي ميز أوضح الطرق بين الكلام واللسان، ضرورة في التمييز بين الأصوات ) .

الفونولوجيا ( علم وظائف الأصوات ) بحسب تروبيتسكوا، هو ذلك العلم الذي يدرس التقابلات الصوتية المستخدمة للتفريق بين الكلمات، والذي بفضله تظهر دلالالتها، وفي المقابل، فإن علم الصوتيات phonétique فيدرس التقابلات الأصواتية التي لا علاقة لها بالدلالات . إنه علم الوجه المادي لأصوات اللغة البشرية . ويستبعد أي علاقة بين المركب الصوتي المدروس ودلالته اللغوية .

(4) - حكي مونغولية يتكلم بها في الاتحاد السوفييتي سابقا .

(5) - البنيويون الذين يميزون بين اللسان - الذي يعد منظومة - والكلام - الذي هو شأن الفرد، يتجاوزون ما يعدونه بمثابة تكلم حر وهامشي للسان . فالكلام الأنثوي، المنزاح عن اللسان، يندرج في إطار الكلام، لأنه لا يلعب دوراً تمييزياً على صعيد اللسان .

(6) - أحد التفسيرات الأكثر شيوعاً الخاص باستخدام المرأة لصيغ لغوية خاطئة، والذي كرره باحثون آخرون، هو ذلك الذي قال به جاسبرسن ( 1922 ) . فعزا الأمر إلى الطابع المحافظ الذي تتسم به النساء، وميلهن إلى التجديد .

ثمة تفسير آخر، هو ذلك الذي يرى في المحرمات سبباً يدفع النساء إلى التكلم بهذه الطريقة أو تلك . في لساننا، يعادل ذلك المحرم الذي يمنع النساء من لفظ بعض الكلمات الخاصة بالعلاقات الجنسية، والوظائف الإلغائية للجسم، أو بعض أجزاء الجسد، والذي يمنعهن من إظهار غضبهن من خلال الأيمان .

(7) - وردت هذه الملاحظة في فرنسا أيضاً . ثمة ألسنيون مثل بينفينيست، وكيليولي، وديكرو - الذين استوحوا أعمالهم من فلاسفة اللغة من مدرسة أكسفورد، مثل أوستين وسيرل - انتقدوا نظرية الانعكاس الشائعة في ذلك الوقت، ووضعوا في مقابلها نظرية تنظر إلى اللسان بوصفه فاعلية . لكن لم يقم أحد بدراسة "لغة النساء" في إطار الأبحاث المستوحاة من هؤلاء الألسنيين.، لذلك لن أتوقف عندهم .

(8) - في كتاباته الأولى حيث كان متأثراً بجاكوبسون، نرى ديل هايمس يولي أهمية كبرى إلى المظهر الوظيفي للغة . في مرحلة لاحقة صار يرى أنه لا بد من النظر في كل عناصر حالة اتصالية محددة - على قدم المساواة - لتوضيحها، ومن دون أن يولي القانون اللغوي أي أهمية .

# الفصل الثالث
# لغة النساء :
# تصور اجتماعي للاختلاف

## 1 . دمغةُ الاختلاف

ثمة اتجاه في مجال ″اللسان والجنس″ لا يهتم أصحابه إلا بالأعمال التي أفضت إلى″ نتائج″، ولا يشار عموماً إلا إلى الأعمال التي نجحت في توضيح لهجة أنثوية تتناقض مع لهجة ذكورية . لا شك أنه من العملي جداً عزو أي اختلاف – حقيقي أو مُتخيَّل – إلى أي انتماء جنسي : فهي فئات عامة، لأن البنية التشريحية للفرد في مجتمعنا تخوله الانضمام إلى هذه الفئة أو تلك .

بعد مناقشة مقتضيات الأعمال التي وصفناها وعرضناها، يمكننا التساؤل حول دلالات مقاربات لم تكن سوى تكرار للأنماط المسبقة المستقرة في أذهان عامة الناس . هذه الأنماط المسبقة كما يمكن استنتاجها من غالبية الكتابات المتعلقة باللسان والجنس، والسلوك اللفظي للنساء والرجال ليست من دون علاقة بالأنماط المسبقة المتعلقة بـ″الطبيعة″ الأنثوية أو الذكورية بكل بساطة : الرجال يتصفون بالموضوعية، لكنهم يثيرون الضجيج، بينما النساء يتصفنَ بالعاطفية والفصاحة .

ومع وجود اختبارات نفت هذه التأكيدات – في الوقت الذي يفترض أن تكون النساء فصيحات، فقد أكدت الدراسات التي أُجريت على المجموعات المختلطة عكس ذلك : إذ تبين أن الرجال أكثر إطناباً منهنَّ – لا بد، أمام إلحاح الأنماط المسبقة هذه، النظر في تفاصيل دلالة هذا التصنيف للهجة الأنثوية، وإدراكها وتقييمها . كيف لا نقيم رجلاً وامرأة يقولان الشيء نفسه بالطريقة نفسها؟ إذ ينظر إلى المرأة التي تتكلم، سواء استخدمت متغيرات ″أنثوية″، أم لم تستخدمها، ويحكم عليها بطريقة غير مناسبة تترافق بإيحاءات سلبية ترتبط باللهجة النسائية عموماً . بعبارة أخرى، سواء تكلمن أم لم يتكلمن،

ينظر إلى طريقتهن في الكلام دائماً تقريباً كما لو، وما إن يعرف المُخاطَب أن المتكلم امرأة تراه يبحث في كل ما تقوله عما يؤكد ما عنده من تصورٍ حول ما تقوله المرأة . وفي كل مرة يتم تجاوز التحريف بين ما يقال وما يُسمع .

وقد عمل كرامر ( Kramer، 1974، 1975، 1978 ) بشكل واسع، وفي سياقات مختلفة على إيضاح هذه الطريقة التي ننظر بها إلى النساء ما إن يفتحن أفواههن . سواء أكانت اللغة الأنثوية كما تتصورها الرسوم المتحركة في New Yorker، أو كما ينبغي أن تكون بنظر من يخططون لسياسة العاملين في إذاعة BBC فدائماً تُنسب إلى النساء لهجة لا علاقة حتمية لها بما يصدر عنهنَّ فعلياً . إذ يعزى إليهن عدد من" الصفات" لا تتوفر لديهن دائماً، وبالضرورة . وسواء أكان هذا الاسناد – صحيحاً أم لا – يمكن تسويغه بالشكل المناسب دوماً .

في تجربة أشرف عليها كرامر ( 1974 ) طلب من أحد عشر فاعلاً من الجنس النسائي قراءة عشرة مقاطع مطبوعة، يتضمن كل نص وصفاً لبناء مُصوَّر، وتحديد جنس المؤلف ( خمسة من أصل المقاطع العشرة كتبت بيد نساء، وخمسة بيد رجال ) . وكان ينبغي تسويغ كل إسناد . كانت النتيجة أن 59 إسناداً كان صحيحاً، و51 خاطئاً . الفواعل الذين أسندوا مقطعاً إلى امرأة في الوقت الذي كتبه رجل، سوّغوا اختيارهم بقولهم أن المقطع المعني قد كتب "بكثير من النعومة" و"الكثير من الحساسية"، ولكنهم قدروا أيضاً أن هذا المقطع كان يتضمن الكثير من الوصف التفصيلي . وهذا برهان على أن التصور النمطي المسبق عن المرأة الفصيحة، التي تتكلم من أجل الكلام، قد دخل في ذهن النساء أيضاً .

ما يثير الدهشة في هذه الأمثلة، هو أنها تقدم لغة النساء بوصفها أمراً واقعاً . بمعنى أن التمييز بين لهجة ذكورية وأخرى أنثوية يقوم على مضمون مُتَصَوَّر، ومعترف به بأنه صحيح حتى من قبل النساء والرجال أيضاً . إذا قيل لأحدهم أنه يتكلم مثل النساء، فهذا يعني أنه يتكلم كثيراً، لكن أقل منهن بطبيعة الحال، في نقل الانفعالات بكثير من التعبيرية، لكنه كلام من دون قناعات، ويستسلم للمقاطعة، ولا ينظر إليه بجدية . وتصور اللهجة النسوية يتعارض مع تصور اللهجة الذكورية التي يعترف لها بأنها تلتزم بالمعيار، أي الطريقة المثلى للتكلم . وتعارض اللهجة الأنثوية مع هذا المعيار يجعلها

ناقصة، وسلبية، وأقل شأناً . ويُستَشفُ من تلك التصورات عن اللهجة النسائية تصورٌ لا يتردد عامة الناس بتسميته الثرثرة .

في الحقيقة، لا شيء يقال عموماً عن المُخاطَب ( سواء أكان المُحقِّق أم المُحقَّق عنه ) ؛ إذ يفترَض أن يكون تصوره مشابهاً لتصور المتحدث، ولكن ما الذي يجعلنا نخلط قواعد التفسير بقواعد الانتاج؟ عندئذٍ، يمكن التساؤل ما إذا كانت الثرثرة النسائية ليست سوى تأويل وتصور في ذهن مراقب خارجي ( رجل أو امرأة ) يقرر الاختلاف، ويقيم الأمور؟

النظر إلى الثرثرة النسائية بطريقة فعالة وديناميكية، واعتبارها بمثابة تصور اجتماعي يقوم على مجموعة من العمليات والفعاليات النفسية التي تتكون من أشكال من المعارف التي تتيح إدراك الواقع الاجتماعي . إنها عمليات إدراكية وعاطفية و – أيضاً – ندائية conatifs تتدخل في تكوين الموضوع، أي الثرثرة، بصرف النظر عما إذا كان هذا الموضوع حقيقياً أم مُتخيَّلاً . تقوم هذه العمليات، من جهة، بتكوين منظومة من القيم، والمفاهيم، والممارسات التي تقدم للأفراد وسائل التوجه في أي بيئة، والتحكم بها . ومن جهةٍ أخرى، فإن الأفراد الذين ينظمون المعارف في مدونة corpus تجعل الواقع الاجتماعي والمادي ملموساً، فهم يتمكنون من الاندماج في مجموعة وإقامة علاقة تبادل مع الآخرين .

عمل موسكوفيتشي Moscovici ( 1961 ) على تطوير فكرة التصور الاجتماعي في مثال آخر يقوم على تبسيط نظرية التحليل النفسي وإدخالها في ذهن الجمهور : "التصور الاجتماعي صيغة معرفية خاصة وظيفتها معرفة التصرفات والتواصل بين الأفراد ( ... ) وهذه التصورات الاجتماعية تتمتع بوظيفة تكوين الواقع، وهو الواقع الوحيد الذي نشعر به، ويتحرك غالبيتنا فيه" ( 1976، ص . 26-27 ) .

يترتب على الثرثرة النسائية، مثلها مثل أي تصور اجتماعي، وجود حقيقي، بل ومادي تقريباً لمن يدركها، ولها آثارها كأي تصور اجتماعي آخر . فكلما تكلمت المرأة، ينبري حكم يتعلق بملفوظيتها . يكفي أن نعرف بأن الفاعل المتكلم ينتمي إلى جنس النساء حتى ننسب إليه الصفات التي نعرفها . هذا الإسناد النمطي المسبق هو إدراك العلاقة بين الانتماء إلى الكيان البيولوجي الذي تتمتع به هذه المجموعة، وإلى ما عندها من خصائص . حينما نضع فرداً معيناً بين النساء، يعني أن نفرض عليه سلسلة من

القيود، والاهتمامات والتصرفات التي نتصورها عنهن . وقد لا يكون للصفات المنسوبة إلى النساء ولهجتهنَّ أي علاقة بما يقلنه فعلياً . عندها، لا بد من الإشارة، وبقوة، إلى أنه ليس الموضوع، أي الفاعل الناطق من الجنس الأنثوي هو من يساهم في التصور الاجتماعي، بل الأوصاف التي يخلعها عليه المراقب فقط .

يُضاف إلى الثرثرة النسائية تصور اجتماعي آخر . أفترض – وهو ما حاولت البرهنة عليه في الفصول السابقة – أن ما ينسبه المراقب إلى اللهجة النسائية، وما يسميه "ثرثرة نسائية" يرتبط بتصوراته عن المرأة والعكس صحيح . فالكلمة الواحدة تتضمن عالماً من تصنيف الأفراد، ونظرياتٍ مُضمَرَة، وحس عام حول طريقة معينة في التصرف على هذا النحو أو غيره . تبعاً لهذه الرؤية، يتم تقطيع العالم إلى شطرين أحدهما ينتمي إلى فئة المرأة والثاني إلى فئة الرجل . وكما أن التصور الاجتماعي للثرثرة مرتبطٌ جوهرياً بالأنوثة، تبدو الأنوثة بوصفها نقطة مرجعية أو مآلاً وكلاً وحدثاً مركزياً من شأنه أن يؤدي، أو أن يكون موضعاً لأشكالٍ مختلفة من التفسير . ويمكن الوقوف على هذه الأشكال التفسيرية على شكل تدوينات سكونيّة لتصور ما في لحظةٍ معينة . وإذا نُظر إليها من هذه الزاوية، يمكن مقارنتها بالصورة الضوئية .

وسواء جاء ذلك في كتاب نقدي أو أغنية لأحد الشعراء الجوالين، أو في لوحة فنان، أو مجلة تعنى بشؤون الدُرجة ( الموضة ) ، يبقى الأمر عبارة عن صيغة، أو تدوين سكوني لكمٍّ كبير يعد بمثابة مرجعية : أي الأنوثة . لكن المرأة نفسها، لا تدخل أبداً في التصور الذي يُبنى حولها . "ليست تعابيرنا كلها، وتصرفاتنا، وأجوبتنا الجسدية واللفظية سوى آثار تصور كوناه عنها، وليست ناجمة عن تحريض خارجي" ( موسكوفيتشي، 1979، ص . 12 ) .

توجد أنواع مختلفة للتفسير، أو "خواص"، على شكل تدوينات سكونية يمكن أن تتبلور وتُحيل إلى المبدأ نفسه، أي مبدأ الأنوثة، أو اللهجة الأنثوية . ونحن ندين للأدب – الكلاسيكي وغيره – بنموذجين على الأقل : سأطلق عليهما نموذج المرأة التقليدية، والنموذج الذي يبشر بالمرأة الحديثة : وكلاهما يناسب عصره، لكنهما هما نفسهما من حيث الجوهر . يقدم موليير لنا مثالاً واضحاً في مسرحيته النساء العالمات /مثل هنرييت السيدة الجميلة، واللطيفة والخاضعة، وغير المهتمة كثيراً ببذل أي مجهود فكري :

الأحاديث المتعالمة ليست من شأني أبداً .

فأنا أحب العيش ببساطة، وينبغي، في كل ما يقال
بذل جهد كبير لكي يتميز المرء بعقله
وهو طموح لا يخطر ببالي أبدا .
وأرى نفسي مرتاحة يا أمي لغبائي .
وأفضل ألا أستخدم سوى الأحاديث المعتادة
على أن أعذب نفسي لكي أتلفظ بكلمات جميلة .

أما أختها ″المتحررة″ فعلى النقيض منها، ولا أهمية عندها سوى لجمال العقل :

إنها إهانة بالغة لجنسنا
ألا نسعى إلى توسيع عقلنا
بدلاً من الحديث عن التنورة ونوع المعطف
أو جمالياتٍ الغُرزة، أو ما جدَّ من ديباج .

لهاتين اللوحتين لامرأتين مختلفتين، مرجعيات متشابهة، سواء أكان حب الرجل ( المضحك في المسرحية أن الرجل واحد هو كليتاندر ) الذي تريد إحداهما أن تكون زوجته المحبة، بينما ترى الأخرى نفسها ربة حسن مُلهمة، أو العقل الذي لا تعبأ الأولى به، بينما تعليه الأخرى فوق كل شيء .

التصورات الاجتماعية حول المرأة أو حول الأُنوثة تقوم حول، أو وفق، أحكام يكونها الأفراد، أو يتفقون معها . الكلمة الجيدة التي تُنسب إلى أوسكار وايلد : ″النساء جنس تزييني . ليس لديهن شيئاً يقلنه، لكنهن يقلنه بطريقة ساحرة″ تحمل دلالة مهمة . تُنسب إلى فئة النساء ″صفة″ يمكن اختصارها بما يلي : الكلام من أجل الكلام . بمعنى أن النساء يُعاملنَ بوصفهن فئة؛ يتمتع جميع أعضائها بالخصائص نفسها . حينما يرى وايلد ثرثرتهنَّ ″ساحرة″ فهو يمتح صفة ينسبها إلى النساء بشكل عام . عندها يمكننا التساؤل : ″بالله عليكم! لماذا تتشابه النساء كلهن؟″ وإذا شئتم جواباً كاريكاتورياً أقول : ″لأنهنَّ نساء!″

كل تفسير سببي لهذا النمط يعد بالتأكيد وجهاً أساسياً لفعل التعرف . فكل فرد يسعى إلى تقديم معنى لسلسلة من التصرفات، أو الأحداث باحثاً عن أسباب الأفعال ونواياها وينسب إلى أحدها مكانة السبب، وللآخر مكانة النتيجة . لكن، ما يراه الفرد نتيجة قد يكون بالنسبة للثاني سبباً . من ثم علينا أن نستنتج أنه يمكن الوقوف على ظاهرة التمييز هذه في الإسناد والتصنيف .

العمليات المستخدمة التي تتيح الحديث عن "ثرثرة النساء" يمكن إجمالها على النحو الآتي :

1 . وجود ممارسة أساسية هي التمييز؛ كالتمييز بين الرجال والنساء على سبيل المثال .

2 . اختيار صفات مثل "كون المرء ثرثاراً"

3 . هذه الصفات تُنسب إلى فئة النساء جميعاً . وقد ينجم هذا الإسناد عن ملاحظة شخصية لهذه الصفة لدى أحد أعضاء هذه المجموعة .

4 . تُعزى هذه الصفة إلى كل أعضاء المجموعة

انطلاقاً من التحليل الوارد في الصفحات السابقة، يمكننا القول إنه مهما كانت صفة اللهجة الأنثوية التي يسميها رجل العلم الكلام المتكلف، من دون اقتناع، أو فصاحة، أو مجرد ثرثرة بالنسبة للعاديين من الناس، فإنها تبقى بنظر المراقب سمة مميزة تسمح له "بالتعرُّف" على النساء . بهذا المعنى يمكن أن تكون الثرثرة بوصفها عامل تمييز . فقد تسمح للمراقب ب" التعرُّف" على الفاعل الناطق بوصفه عضواً في فئة "تم التقليل من شأنها" . وبهذا فهو عامل مميز لمجموعة أقلوية .

فهل يمكن لهذا العامل أن يجعل من النساء أقلية؟ وهل يحولهن انتماءهن هذا إلى جماعة أقلّويّة؟ أو، بعبارة أخرى، هل يمكن الزعم أن النساء قابلات للفرز – لأسباب جسدية وثقافية – ويخضعن لمعاملة مختلفة وغير منصفة، وأنهن يعتبرن أنفسهن لهذا، موضع تمييز جماعي؟

## 2 . إشكالية ومشروع حل

لا يهدف هذا الكتاب تقديم إجابة نهائية على ما جاء في المقطع السابق، بل الانطلاق من مثال محدد لبيان الأجوبة التي يمكن للمرأة تقديمها رداً على قضيةٍ تواجهها، وهي أن الجميع يعتبرها ثرثارة . فماهي الاستراتيجيات التي يمكن الاستعانة بها لتجاوز هذه الصورة السلبية المتكونة عنها؟

لكي نتمكن من إيضاح الطريقة التي تمكن النساء من التخلص من هذه "السمة" الدالة عليهنَّ، لا بد من معرفة الطريقة التي يتلقينها بها . ما هو فهمهن للثرثرة، وكيف تكونت؟ ما هي مواقفهنَّ إزاء هذا الشكل من التواصل الذي يُنسب إليهن؟ كيف يدخل هذا الموقف في تنظيم العناصر المُختارة وبنائها؟ وما هي هذه العناصر الأساسية تحديداَ؟

إذا اعتبرنا الثرثرة بمثابة تصور construction فاعل ومتجانس كوّنه المراقب، وينتظم حول تصور الأنوثة، أو تنظيمها، فما هي بنى التصورات المعنية بها؟ يبدو لازماً تحديد مجال هذا التصور وتحليله أو تلك التصورات، وأبعادها المختلفة، وتنظيمها بمقدار ما نستطيع بهدف الحصول على "نماذج" كافية من الثرثرة العامة، والنظر في دلالة هذه النماذج في حياتهن . ما الذي تعنيه الثرثرة بالنسبة لهن، وكيف تعنيهنَّ، وكيف تدخل في تنظيم حياتهن، حياتهن كنساء على وجه التحديد، لأنه يعنيهن بوصفهن عضوات في مجموعة؟ هل تفضل النساء مجموعتهن أم يرغبن في الانفصال عنها؟

المشروع النظري الذي وضعه تاجفل Tajfel في عام 1975 أثار الانتباه حول هذه الظاهرة : إذ إن مجرد تصنيف الأفراد في "داخل المجموعة in-group" وفي "خارج المجموعة out-group"، شرط لازم وكافٍ للتحيز إلى المجموعة التي ننتمي إليها، وتمييزها عن غيرها .

ومع ذلك فإننا نعرف أن هناك ثمة استثناء . "التصنيف إلى "نحن" و"آخرين" لا يخلق الميل إلى التحيز لداخل المجموعة إلا حينما يكون التصنيف حيادياً و/أو حينما يصبح تفوق المجموعة راسخاً" ( Paicheler وDarmon، 1977-1978، ص . 171 ) . بالفعل ترى الأقلويّ يعبر بالأحرى عن ميل معاكس لتفضيل المجموعة الأخرى . بل نراه يفضل الأكثرية بنحو خص . تبين إحدى التجارب التي أجراها كل من بيشلر ودارمون ( 1977-1978 ) ، على سبيل المثال، أن مجرد التلاعب بالتصور أكثرية - أقلية ( تجريبياً نجعل الفاعل يعتقد أنه ينتمي إلى مجموعةٍ أكثرية، أو أقلويّة )

يكفي ليظهر جانب التحيز لدى ″الأكثريين″، وتطلق المجموعة ″الأقلوية″ حكماً سلبياً على نفسها .

هذا ما نجده فعلاً، في الأدبيات الأميركية حول ″لغة النساء″، التي ناقشناها سابقاً، لاسيما أن المؤلفين ينتمون في غالبيتهم العظمى إلى النساء . فمن جهة يتبنين الحاجة للتصنيف إلى ″نحن″ ( لغة نسائية ) ، و″آخرين″ ( لغة ذكورية ) ، ومن جهة أخرى، فإنهن يرين من خلال عيون″ الآخرين″ أن ما ينتجه ″نحن″ غير جيد . لذلك تراهن، في أغلب الأحيان، يقترحن على النساء تغيير اللغة وطريقة تكلمها ( ما يزال قسم كبير من الألسنيين يعودون إلى حد ما، إلى فرضيات سابير-وورف Sapir-Worf 1956 - القائلة أن اللسان يحدد الفكر ) أو اعتماد لغة أكثر″ ذكورية ″ ( لاكوف، 1975 ) .

لكن موقف الحَط من القيمة ( التقليل من الشأن ) ليس الرد الوحيد الذي تقدمه المجموعة الأقلّويّة على التمييز . إذ تبين تجارب كل من موسكوفيتشي وبيشلر ( 1978 ) أن الموقف الذي يمكن أن يتخذه أعضاء مجموعة أقلوية إزاء مجموعةٍ أكثرية يكون موقفاً تفضيلياً أو تمييزياً . بالفعل، إذا وجد فرد أو جماعة واثقة من آرائها وملتزمة بها، فهو يرجع إلى الفرد أو المجموعة التي تحتل موقعاً أرفع من الناحية الهرمية، ليؤكد بهذا خصوصيته ويقبل الاختلاف المعني . إن التموضع، بشكل إرادي، وبتعنت، وواعي في طبقة أقلوية، على سبيل المثال، قد يدل على القطيعة . في هذه الحالة، يمكن للنساء أن يطالبن إرادياً بخصائص - تحط من القيمة - تعزى إلى مجموعتهن من قبل المجموعة الأكثرية والتصريح عن هذه الخصائص بأنها مرغوبة اجتماعياً، عبر إعادة تأويلها تبعاً لتصور جديد .

ثمة اتجاه أدبي، غالباً ما يكون قريباً من التحليل النفسي يتبنى هذا الكلام الأنثوي بوصفه علامة على الاختلاف . في خلال السنوات الأخيرة، ظهرت كتب عدة ومؤلفات ( إيريغاري Irigary 1974؛ ولوكلير Leclerc، 1974؛ مونرولاي Montrelay، 1977 ) تتناول هذا الموضوع . وقد سقت هذه الأسماء بوصفها الأكثر تأثيراً في فرنسا خصصت للحديث عن الكلام النسائي . معظم هؤلاء الكتاب يتبنون مقولة وجود لغة في الجسد، ومن خلال الجسد . وكُرس عدد من الدراسات والكتابات للحديث عن تجليات جسد المرأة، فقيل إنه لا يملك الكلام، ومتألم، وعاجز، لكنه قادر على الاستمتاع . إذاً،

قد يعني الأمر، أن على النساء العثور على لغتهنَّ من خلال الإصغاء إلى أجسادهن . غالباً ما صيغت تلك الفرضيات استناداً إلى حدس متكلمين ساعين إلى إيجاد موضوع لدراسة حالهم بوصفهم فواعل فطريين natifs . وقد أعيد إلباس صفات ظلت حتى ذلك الوقت موضع احتقار عام، لبوساً من الصفات الإيجابية . وهكذا كان في كنف الحركات النسوية في خلال السبعينيات، حيث جرى تحويل اللغة - الثرثرة لدى النساء نحو تناول للكلام، الذي أصبح مرغوباً من الناحية الاجتماعية لهذا السبب .

الأمثلة التي وردت في الأدب النفسي-الاجتماعي تظهر التحيز إلى المجموعة التي ننتمي إليها، أو للمجموعة الأخرى الخاصة بأفراد واعين لمكانتهم الأقلويّة . ومع هذا، فإن الفرد لا يشعر بانفصاله عن مجموعته بوصفها موجهةً ضده لأنه عضو فيها . في النهاية، كل شيء منوط بالمراقب، وقد لايكون أي تماهٍ بمجموعة أقلوية . وحينما لا ينجح التماهي بأقلية معينة، يمكننا توقع أن يكون لهذين الردين - موقف التقييم وموقف التفضيل - طبيعة فردية وليست جماعية .

فمن جهة، يمكن أن يكون "الأقلوي" واعياً بتلقيه "معاملةً" مختلفة، ولكن يسرها إسنادها إلى صفات تمييزية" تختص بها مجموعتة . سودرا Soudra[(1)] يعرف أنه لا حيلة له بالنسبة لقدره وبالتالي، لا ينتظر أن يمنحه براهما أي امتياز . ولأنه لا يعد نفسه موضوع تمييز جماعي، فإنه لا يكن كراهية إزاء "الأغلبي" أي براهما، ويتآلف مع دوره كتابع، ويقوم به .

من جانب آخر، يمكن لـ"الأقلوي" أن يأمل بالخروج من أقلويته بشكل فردي، ويسعى إلى التقرب من المجموعة الأكبر اجتماعياً . وهو ما يسميه ليفين ( Lewin 1935، 1940 ) "الإنسان الهامشي" . فهو ينتمي إلى المجموعتين في الوقت نفسه، لكنه يشعر بأن مجموعته السابقة الني ينتمي إليها تشكل عائقاً أمام الاندماج بالمجموعة الأكثرية، وبما أن هذه المجموعة لا تعترف بالإنسان الهامشي كليّاَ، فيتحول إلى اتهام نفسه . ومثله المرأة، التي تتجاذبها "الثرثرة"، بوصفها لسان "أصولها" - التي تحتقرها - واللغة العقلانية والمفيدة التي اكتسبتها والتي لا ينبغي عليها امتلاكها، لأنها يجب أن تبقى امرأة يمكن أن ينشأ عندها كراهية للذات وللمجموعة "السابقة" التي كانت تنتمي إليها، وتشعر بأنها عائق أمام تحقيق طموحاتها .

## 3 . مقابلة النساء

### أ - اختيار المنهج

كل منا قادر على تكوين فكرة حول النساء . فثمة أقوال مأثورة، وحكم، وأغاني، وأدب متخصص أيضاً يدل بشكل واسع على تصورات نمطية عن النساء والثرثرة . لكن ماذا عن المعنيات الرئيسيات بالأمر؟ ما هي طريقتهن في تصور "صفة" تخلعُ عليهنَّ؟ الحقيقة أن هذا المجال من الحياة الاجتماعية لم يسبر غوره حتى الآن إلا لماماً . فنحن لا نعرف إلا النزر اليسير، وربما لا نعرف شيئاً عن الطريقة التي تتقبل النساء من خلالها تهمة الثرثرة التي تلصق بهن .

للوقوف على وجهة نظرهنَّ، لا أستطيع إلا اللجوء أولاً إلى تقنية كيفية qualitative تقوم على جمع المعلومة، أي التحاور غير التوجيهي .

مع أن المقابلات غير التوجيهية قد دخلت الأعراف والتقاليد، إلا أن طابعها بقي مطموساً . ولم يتطرق أحد إلى مناقشتها وتحليلها، أو تسويغها جدياً : إنها وسيلة مقاربة لم تُقعَّد أو تعمم إلا بمقدار ضئيل . هذه التقنية وضعها كارل روجرز Carl Rogers ( 1945 ) لدراسة حالات ذات نمط سريري، ثم "نُقلت" إلى ميدان العلوم الاجتماعية . ويبدو إنها أفضل الطرق لجمع مادة خام وشاملة ممكنة عبَّرت عنها لغة الأشخاص الذين تتم مقابلتهم . كما يصبح ممكناً تحديد مجال هذه التصورات، وتحليل أبعادها المختلفة، والطريقة التي تنتظم فيها، والآليات التي تربطها ببعضها . لا تكمن أهمية هذه المقابلات في الطريقة التي تندرج من خلالها العناصر المعرفية، وتنتظم في تشكيلة معينة configuration .

### ب - توجيه consigne

انطلاقاً من توجيه أولي واسع بقدر الإمكان، لكنه موجه نحو القضية المدروسة، فإن النساء اللواتي أجريت معهن المقابلات تحدثن بما استطعن من حرية . وقد أتاحت الاستئنافات وإعادة الصياغة، المركزة حتماً، بتعميق وتسهيل انبثاق المشاعر الشخصية .

تطرح صياغة التوجيه consigne قضايا دقيقة حينما يتعلق الأمر بموضوع حوار مفعم بالعاطفية، مثل موضوع ″الثرثرة النسائية″ . غالباً ما أفضت الدلالات الإيحائية السلبية المرتبطة بها إلى موقف رافض حينما أدخلتُ، في مقابلاتي الأولى، هذه العبارة إما من خلال التوجيه consigne، أو بإعادة صياغات ناتجة عن التوجيه . في المقابل، لدى العودة إلى الحديث في الموضوع حينما تتطرق النساء إليه عفوياً – وهذا ما جرى معي دائماً – يصبح ثراء مجاله الدلالي واضحاً للعيان .

التوجيه النهائي الذي استخدمته جاء على النحو الآتي :

″أنا بصدد إجراء دراسة حول لغة النساء، وأود معرفة ما يعنيه كلام النساء فيما بينهن . هل تظني أن طريقة تكلُّم النساء تختلف عن الطريقة التي يتكلم بها الرجال؟ وبرأيكِ، ما الذي يعنيه هذا التبادل الكلامي بين النساء؟″

## ت - عيّنة

تمت مقابلة 60 امرأة . وكان اختيار العينة نوعياً . اختير الأشخاص المسؤولون وفق معايير لا علاقة لها بالاحتمالية ( العمل بالرأي المحتمل ) ، ولا تعد، باي شكل من الأشكال، عينة شاملة التمثيل، بالمعنى الإحصائي للعبارة . إنها عينة تكوَّنت للوفاء باحتياجات البحث، أي عينة ديناميكية، كما يقول موسكوفيتشي ( 1961 ) . إذاً، بحثت عن مجموعات فرعية من نساء باريس اللاتي تتراوح أعمارهن بين 20 و50 سنة، ومختلفات بقدر الإمكان . لم يتم الاختيار تبعاً لأهمية هذه المجموعات، بل لفرادتهن :

تتميز النساء بحسب :

– طبيعة العمل

* ربات بيوت

* نساء يمارسن مهناً أفضليتها للنساء ( سكرتيرات، عارضات أزياء، مقدمات برامج، الخ ) ؛

* نساء يمارسن مهناً، الأفضلية فيها للرجال ( طبيب، مهندس معماري، عالم أحياء، باحث، الخ . )

* نساء يشغلن وظائف هامشية وعَرَضيّة؛

– تسييس :

* نساء يعملن في الحركات النسوية من كل الاتجاهات؛

* نساء لا يعملن في الحركات النسوية .

---

(1) - بحسب الأساطير الهندية، هو الابن الرابع لبراهما "خالق الكون" . ولد من قدمه اليمنى، وأسس أدنى طبقات المجتمع [م]

# الفصل الرابع
# تفسيرات الأنوثة والثرثرة

## 1 . وعي السلبية

ما يثير الانتباه لدى تحليل مقابلات مدتها 4500 دقيقة تقريباً هو أن : النساء اللواتي أُجريت معهن المقابلات يعترفن كلهن تقريباً بوجود سمة تميز المرأة، هي الثرثرة . وهن واعيات تماماً لسلبية هذه السمة مهما كانت طريقتهن في التآلف معها لاحقاً . الصورة التي أوحينها لي في وصفهن هي صورة النساء اللواتي ينظرن في المرآة وخلفهن ظل الرجل :

"تذكرني الثرثرة بيوم عادي لامرأة لاهم لها سوى طناجرها . هكذا هو الحال" [(1)] .

"يعرف عن النساء أنهن ثرثارات، ويتكلمن بسهولة أكثر من الرجل، حتى وإن لم يثرثرن . المرأة بطبيعتها أكثر ثرثرة من الرجل، ومن مصلحتها أن تتمالك نفسها ."

"ثمة نساء يناقشن كما يناقش الرجال، وقادرات مثلهم على المناقشة لكن لا بد من مساعدتهن بوجود، شخص يمنعهن من الخروج عن الموضوع" .

ويبقى ظل الرجل مصدر إزعاج لهن في بعض الأحيان

"كلمة ثرثرة توحي بنية تحقيرية ممن يتلفظ بها / لكن أنا، أشعر بها كشيء آخر، إذ حتى لو كانت التبادلات الكلامية تافهة، فهي في النهاية تبادل، وهو أمر مهم، وربما يفضي إلى شيء أكثر مادية، وأكثر ذكاءً، وأكثر إثراء ."

"هذا يقلل من قيمتنا، إنهم يحطون من شأننا، ويحاولون تلقيننا، آلياً، كما لو أن الرجل يريد أن يطمئن نفسه، بأنه ما يزال مُحافظاً على قيمته ."

ولسنَ غافلات عما تعنيه هذه السمة :

″لماذا يبدو الجميع متفقين حينما يرد موضوع الثرثرة النسائية؟ يبدو أن ثمة اتفاق على القول : ″نعم، نعم، هناك ثرثرة نسائية″، وبطبيعة الحال هناك تقليل من قيمة الكلمة، والثرثرة بطبيعة الحال، كلام مجاني، لا أهمية كبرى له خارج الفعل، وهو تافه . إنه مرتبط بالظرف النسائي . وفي الوقت نفسه هناك توافق واسع : المرأة هذا، والمرأة ذاك، حسناً نجد هذا التوافق نفسه، إنه الشيء نفسه في ما يتعلق بالثرثرة النسائية.″″

″إنها سمة أناسٍ يعيشون ظرفاً أدنى، هل ترين، ثمة من يتحدث عن ثرثرة العبيد.″

عدد منهن يرين أن الرجال يثرثرون بمقدار ما تثرثر المرأة :

″الرجال يثرثرون مثلهم مثل النساء . كلامهم عقيم، يشبه كلام النساء.″

″إنه لمكر عقيم قول مثل هذا الأمر، لأن ثرثرة النساء.. . الرجال أيضاً يتسمون بثرثرة ذكورية . طبعاً، هناك ثرثرة نسائية، حينما نسمع، نسمع نساء يتحدثن فيما بينهن، لا يفكرن إلا بشيء واحد هو أن يتكلمن بما هب ودب . أعرف نساء يتكلمن كذلك . لكن كم من الرجال يتحدثون عن آخر فتاة اصطادوها . إنه الشيء نفسه . هناك ثرثرة نساء، وثرثرة رجال.″

″ينتابني انطباع أن الرجال يثرثرون كثيراً . مثلنا . لا بد أنهم يقضون وقتاً طويلاً في الثرثرة حول أي شيء . أنا متأكدة تقريباً . من ميكانيك السيارة التي لا تسير، وحول كتاب ما، أو حول مباراة شاهدوها.″

ويستنكرن إلى حد ما هيمنة موقف الرجال الذين يجعلون من أنفسهم قضاة :

″يسعى الرجل دوماً إلى التفوق في المحادثة، وإدارة المحادثة″ .

″إذاً، إما أن نتمكن من المحاكمة العقلية كالرجل، أو يعتبروننا عاجزات عن رؤية الأشياء بجدية، كنساء، أي أكثر سطحية، من دون بنية، فجأة يغيب المضمون . لا يمكن اعتبار هذا جدياً.″

″الرجل، إنه أولاً، جسدي، هناك دائماً الجانب المهيمن، وهذا حتمي . في المحادثات أيضاً . عموماً الرجال يتكلمون عن أشياء يزعمون أنها مهمة، والنساء يعانين من مشاكل مهمة، لكنهن لا يتنبهن إليها كثيراً .″

## 2 . الاختلاف - المساواة الفردانية - والمجموعتية

بدا لي وجود موضوعين يحكمان المقابلات، وفهم الثرثرة : أحدهما، موضوع الاختلاف بين الرجال والنساء والتشابه بين النساء في ما بينهن . والثاني موضوع المساواة والتماهي بالرجال وقيمهم وصفاتهم، والمسافة التي تفصلهم عنهن، بمعنى رفض ما يعدُّ، ″من الناحية النمطية″، أنثوياً .

لقد عملت على إبراز الاختلاف في طريقة تقديمي للمقابلات، إلا أن إدراكه وتفسيره ظل متغيراً . وقد وازنه ″موضوع المساواة″ بالرجال، وتماهي النساء ب″ الصفات″ التي تزيد من قيمة الرجال . وبحسب بروز هذا الموضوع أو ذاك، تفسر الثرثرة في أجواء مختلفة . فإما قبول هذه السمة أو رفضها التي تحملُ بالنتيجة قيماً موضوعية أو ذاتية .

لكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد . فأن نتفق مع موضوع ونرفض الآخر يمكن أن تشعر به بعض النساء على أنه فعل فردي، خيار فردي وشخصي من دون الإحالة إلى أي مجموعة . كما يمكن للوقوف مع أو ضد أن يشعر به الآخرون بمثابة فعل جماعي، وشعور بالانتماء إلى مجموعة والرغبة في الانضمام إليها . هذا ما تتميز به النماذج النسائية!

## 3 . أربعة حلول

بأي طريقة تتآلف النساء مع ما يصفن به، وما هي الحلول التي يقدمنها لدرء تهمة الثرثرة عنهن؟

الحلول اللازمة للقيام بتفسير فعلي للثرثرة والأنوثة تتفق إلى حد ما مع الحلول التي رسمها الأدب النفسي – الاجتماعي، مع فارق أن لها جانباً فردياً وآخر جماعياً، وفي

النتيجة، يمكن استخلاص أربعة عوالم تقدم التفسيرات التي تدخل كأبعاد بارزة في تعريف المجموعات الاجتماعية الأربع، وهي على النحو الآتي :

حلول

| فردية | جماعية |
| --- | --- |
| امراة تقليدية | امراة جديدة |
| امراة حديثة | امراة نسوية |

الشكل رقم 4 – نماذج الثرثرة الأربعة

لكن، علينا ملاحظة أنه لا يجوز اعتبار الفئات الأربع مغلقة تماماً ونهائياً كما هي واردة أعلاه . فعوالم التفسير غامضة، ومتغيرة، ومتأرجحة . ( أ ) و ( ب ) ، تفسيران لكل من المرأة التقليدية والمرأة الجديدة، يشكلان بالنسبة إلى المراقب الخارجي مجموعة متصلة لا تمكنه من استخلاص سمة تفصل بينهما . الشيء نفسه ينطبق على ( أ ) و ( ت ) ، المرأة الحديثة، بالنسبة ل ( ب ) و ( ث ) ، المرأة النسوية suffragette، وبالنسبة ل ( ت ) و ( ث ) . لكن ت، أي المرأة الحديثة هي نقيضة ب، أي المرأة الجديدة، و ( أ ) المرأة التقليدية هي نقيضة ( ث ) أي المرأة النسوية .

يشترك الحلان الأفقيان ( أ ) و ( ب ) في قبولهما بالثرثرة بوصفها قيمة أنثوية نوعياً وحصرياً . ويتصفان بموقف تفضيلي للثرثرة . المرأة التقليدية تعد الثرثرة بوصفها تقريباً جزء منها، ولكنها تخفي ذلك، في حين أن المرأة الجديدة تعده بمثابة أمر مرغوب فيه اجتماعياً وتطالب به لنفسها .

في المقابل فإن الحلّين ( ت ) و ( ث ) يتصفان بموقف سلبي من الثرثرة وبالتقليل من قيمتها . ويرفضان هذا الشكل من التواصل – على حساب نساء أُخريات!

ثمة شيء مشترك بين ( أ ) و ( ث ) هو موقفهما الفردي . فهما في أجوبتهما تتآلفان مع الوضع الراهن وتجدان نفسيهما مرتاحتين فيه . أما ( ب ) و ( ث ) ، في المقابل، فهما تنتقلان من خلال المجموعة وتسعيان إلى تغيير المجتمع برمّته، ولكن المرأة الجديدة ترى أن على هذا المجتمع أن يتأنث féminisée بالقيم النسائية

والانسجام وعدم التنافس . في حين أن المرأة النسوية - الخنثوية - ترى عالم الرجال هو العالم المثالي، لأنه عالم الصراع، والفعل، واالفاعلية .

ترتبط بهذه الحلول "المثالية" أربعة تفسيرات "مثالية" للأنوثة :

أ ) يرتبط الحل الفردي الذي يثمن ثرثرة النساء بصورة المرأة التي يمكن وصفها بالتقليدية . المرأة التقليدية المُكمِّلة للرجل تتآلف مع دورها التابع، وسمتها، وتجد فيه فائدة لها . والحالة النمطية القصوى تجسدها المرأة الكلية التي تتبناها مارابل مورغان ( Marabel Morgan 1975 ) في كتابين لها وبيعت منه ملايين النسخ . ونراها تقول : "أيتها النسوة، كنَّ خاضعات لأزواجكن بمقدار خضوعكن لله.. . المرأة الكلية تستمتع بكل ما يهم زوجها وتسعى إلى إرضائه، سواء بتحضيرها الصلصة له، أو بالجنس أو بالرياضة."

ب ) الحل الموضوعي "المجموعتي groupale" هو حل المرأة الجديدة، النسوية التي تنطلق من الفكرة القائلة بأن الرجل دمَّر قدراتها . وتطالب بصورة المرأة الساحرة، المحروقة بسبب دورها في تخريب العقول، والخطر الذي تمثله على النظام القائم، ولهذا أُجبرت المرأة على الصمت أو الهستيريا . هدف تلك النسوة يقوم الآن على أن يعثرن معاً على هويتهنَّ، وأُنوثتهن الحقيقية المتمثلة بالموقف الأنثوي Féminitude، وليس بالجسد فحسب . وقد ظهر شعار تداولته الصحف بين عامي 1974 . 1975 : "نحن جميعاً هيستيريات."

ت ) هناك حل فردي ثالث هو حل المرأة الحديثة، وله جانبان : يسمى الأول career woman [المرأة العاملة] من جانب، التي تؤمن بالمساواة في الفرص بين الجميع، ولا تؤمن لكونها امرأة أن بإمكانها التأثير في الدور الذي ترغب في القيام به في المجتمع . وهي تميز نفسها عن المرأة التقليدية، وتنظر إليها بدونية، وتقترب من الرجال ومن صفاتهم الأكثر مهابة من الناحية الاجتماعية . وثمة جانب آخر قد يبدو مناقضاً تماماً، لكنه في الحقيقة، طريقة أخرى للتساوي بالرجال، تمثله بطلة فلم "LULU" آكلة الرجال، التي تختار عشاقها بالطريقة نفسها التي يختار بها الرجل نساءه .

ث ) أخيراً، المرأة النسوية suffragette تتميز بها داعيات الحركات النسوية اللاتي يناضلن على الصعد السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية لوعيهن للتمييز الذي يتعرضن له بشكل جماعي . ومع هذا، فإن هذه المطالبة تتم بصيغة ذكورية . فالطموح إلى تبني سلوك "ذكوري" يوازيه التخلي عن مزايا وصفات أنثوية تقليدياً ورفض الثرثرة لأنها صفة لأنوثة تافهة وعديمة الجدوى .

في الفصلين اللاحقين، سنسعى إلى توضيح وتفسير النماذج الأربعة وكذلك عوالم التفسير المرتبطة بها من خلال مقبوسات من بعض المقابلات .

---

(1) - حذفت أي إحالة من شأنها الدلالة على تلك النسوة، وحافظت على السرية [ المؤلفة] . أشير كمترجم إلى أنني حافظت بقدر المستطاع على الأسلوب الشفهي الذي وردت فيه تلك الأقوال النسائية، فبدت ركيكة في بعض الأحيان م]

# الفصل الخامس
# الحلول الفردية
# المرأة التقليدية
# الحل ( أ )

مفهوم المرأة التقليدية مفهوم مجرد للإشارة إلى مجموعة من ″الردود″ التي تم جمعها من عدد من المقابلات . بعد إجراء كشف لما أمكن قوله حول الاختلاف، توصلنا إلى تصنيف أجوبة مترابطة المصير تحت مفهوم مجرد . ″هذه الأجوبة″ تشكل أبعادَ تصوّرٍ يتركز حول قضية معرفة ما إذا كان لدى النساء طريقة للتكلم فيما بينهن تختلف عن طريقة الرجال، أي تلك الطريقة في التكلم التي يصفها عموم الناس بالثرثرة . يمكن دمج هذه الأبعاد افتراضياً، في التصور الاجتماعي للثرثرة وللأنوثة طالما أن مبدأ الاختلاف ملائماً pertinent، أي يمكن تفسيره فعلياً بأحد هذه العوالم الأربعة .

## 1 . مبدأ الاختلاف

إن قبول المرأة للاختلاف يعني قبولها لأنوثتها، واضطلاعها بها . ومعايشة هذا الاختلاف جيداً بشكل كامل، إذا صح القول، يشكل نموذجاً حافظ على أهميته، حتى لو اختلف تفسير تجليات الأنوثة بين هذا وذاك، وأنه يتطور ويتكيف مع روح العصر، وأن تأثير موضوع المساواة قد سبب انتقالات فوق أرضية الأنوثة :

″أنا على قناعة بأن عقل الرجل والمرأة، شيآن مختلفان، كانطباعي تقريباً بوجود اختلاف بين الكلب والقط . المرأة والرجل مختلفان اختلاف القط والكلب، باستثناء أن كليهما حيوانان . لكنهما جنسان مختلفان . الرجل والمرأة جنسان مختلفان، مع إنهما ينتميان إلى النوع نفسه . وبناء على هذا، فلا ينبغي المقارنة بينهما .″

لا يترجم الاختلاف عن الآخر، بالنسبة للمرأة التقليدية على أساس عدم المساواة، بل لأنه يسمح لها بتحديد نفسها . وقبول الاختلاف والاضطلاع به، يعني التأكيد على الأُنوثة . ويشتمل مفهوم الأنوثة على مفهوم الاختلاف . بمعنى أن الأنوثة تنشأ من الاختلاف :

″الأنوثة جملةٌ من التفاصيل الصغيرة، إنها، كما لو تسألينني ماهي الفتنة . إنها، أي الأنوثة صعبة التعريف؛ الحقيقة أنها صعبة التعريف، فهي طريقةٌ في عيش الأشياء بعمق : في طريقة التكلم، وصيغة الحياة، وكيفية التموضع إزاء الرجل . إنها الفتنة، أو ما يمنح المرأة فتنتها، وهي أبعد ما تكون عن وضعها في موقع الدونية . الحقيقة، إنه من الغباء الحديث عن تفوق ودونية بين الرجال والنساء . الحقيقة إنها قضية لامعنى لها .″

″[لدى المرأة] نوع من الأناقة، بل أقول النعومة، وكثير من التفاصيل الدقيقة، حركات ناعمة، لطيفة، مدروسة ربما . لا أدري . إذا رأيت الرجل، أرى شيئاً مخلخلاً في سلوكه، وحركته . إذا تصرفت المرأة، وإن تحدثت عن حركة فهي تقطعها إلى ثلاث مراحل . أما الرجل فيقوم بها دفعة واحدة وينتهي الأمر .″

ومن حيث التكامل بين الرجل والمرأة :

″لكل من الرجل والمرأة خصائصه، ومن غير المجدي مقارنة هذه الطاولة بتلك الوردة . إن مثل هذه المقارنة مثيرة للسخرية . النساء ينجحن أكثر من الرجل في بعض الميادين، والعكس صحيح ( ... ) أرى أن على الزوجين أن يتقاسما المهام . الرجل مشغول خارج المنزل، أما المرأة فتقوم بكل الأمور .″

الرجل هو المرآة التي تستقبل وتعكس :

″ليس للمرأة بشرة الرجل . وتعاني من مشاكل جسدية أكثر من الرجل؛ هذا أكيد . تريد النساء دائماً إثارة إعجاب الرجال . أن تعجبهم تماماً .″

وهي ترى أن هذا الاختلاف يندرج في طبيعة المرأة؛ إذاً، ثمة حتميات طبيعية، لا يجوز الوقوف في وجهها :

″سبب هذا يعود إلى أن المرأة مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالأولاد أكثر من ارتباط الرجل بهم . مثل الحيوان! أعتقد بوجود شيء ملازم لطبيعة المرأة .

لكونها ولدتهم – بعد حملهم تسعة أشهر – هذا كثير . وترى المرأة نفسها فارغة بعد أن تضع حملها . المرأة تضحي بالكثير من نفسها . جسدياً.″

ربما يمكن الشعور بهذا الاختلاف بشكل بالغ القوة، بحيث تبدو أي محاولة لإخفائه أكثر من صعبة :

″ربما هذا هو السبب الذي لا يجعلنا نرى الكثير من النساء في وظائف عليا، لأنه يصعب عليهن كثيراً التحلي بعقلية الرجل ( ... ) فحينما تنجح المرأة في مجال معين، فذلك لأنها كانت تحمل في داخلها القدرات اللازمة للقيام بهذه الوظيفة . ومع ذلك ترى عدداً أقل من النساء في موقع إدارة مصرف، وهو دليل واضح على أن هذا الأمر غير طبيعي . في حالات استثنائية تتمتع المرأة بروح الرجل.″

وفقدان المرأة لأنوثتها من خلال ممارستها لفعل مضاد للطبيعة :

″لقد مارسن مهناً في المجال الفني، فتغيرنَ تماماً . تغيرن في كل شيء . ربما يكون هناك جانب إيجابي، ولكن لدى النساء جانب سلبي . فثمة نساء كان بوسعهن أن يكنَّ مفرطات في نسويتهنَّ، لكنهن فقدن أُنوثتهنَّ، لأنهن أردن أن يقلدن نوعاً من اللغة الحرة إلى حد ما، وربما أردن التقرّب من الرجال؛ لا أعرف.″

أو من خلال تهديد الحياة الزوجية – سواء أكانت حقيقية أم افتراضية – :

″حينما يكون الرجل في المنزل يبدو الأمرمثيراً تماماً للضحك، ولا أظن أن في هذا سعادة للزوجين . يبدو لي تغيير الأدوار مثيراً للابتسام.″

″ثمة نساء يتجاوزن الرجال حينما ينجحن . مع أنهم متساوون من حيث التأهيل . وهذه عقبة ينبغي الانتباه إلى الاصطدام بها . سيكون الأمر سيئاً بالنسبة للطرفين، في كل الأحوال.″

ومع أن للطبيعة دورا كبيرا في هذا الاختلاف، إلا أنه يمكن تفسيره أيضاً من خلال الحتميات الاجتماعية، التي غالباً ما تبدو بمثابة مشروطية conditionnement لا يمكن حتى للرجل أن يتخلص منها :

″إنها مشروطية . في الأساس نزرع في ذهن الولد قولنا : إنك رجل . عليك أن تثبت بأنك رجل . الرجل لا يملك الكثير من الوسائل ليبرهن على أنه

رجل، اللهم إلا على الصعيد الجنسي، أو على صعيد العمل في الحياة . لذلك تراهم يبذلون جهدهم طيلة حياتهم، ليثبتوا أنهم رجال.″

″على أي حال، تتحدث المرأة أقل من الرجل عن الأعمال، إلا حينما تبدأ بممارسة العمل، وهن عموماً يمارسن القليل منها؛ هذا كله عبارة عن مسائل تتعلق بالعادة وطريقة العيش . طالما رُبيت المرأة للاهتمام بالبيت أكثر من الأعمال التجارية أو الوظيفية.″

هذه الأُنوثة، مهما كانت طبيعة حتمياتها، من شأنها أن تكون مربحة . إنها لا تؤمن حب الرجل فحسب :

″كثيراً ما يدور الحديث عن المرأة–الموضوع . الحقيقة أن المرأة–الموضوع ليست حالة مريحة كما نظن . فأن تكون موضع تقدير الرجل، يعني المبالغة في الإعلاء من شأنه. . ويعني أن تكون الإلهة إلى حد ما ( ... ) الأنوثة، في حقيقة الأمر يعني قبولها أن تكون محمية . قد يكون هذا هو الأمر . لكنه لا يعني أن تضع المرأة نفسها في موقع الدونية، بل بالعكس . حينما تكون إزاء كائن أضعف منك، فإنك تميل بالأحرى إلى مد يد العون له . وفي هذه اللحظة، فإنه هو الذي يصبح ضعيفاً . ومن كان الأقوى يتحول إلى الأقوى.″

لكن لهذه الأنوثة مزايا أخرى، أي أكثر مادية وأقل رومانتيكية :

″لا شك أن العمل طيلة النهار أمر مزعج . أعترف بأني مسرورة جداً . لستُ بحاجةٍ إلى العمل، ومن ثم فلا أمارسه . لو أني عملت، لندمت على الحياة التي أعيشها، على ما أظن.″ أمر بعد الظهر إلى بيتي وأنا أقرأ، ويمكنني لعب دور في لعبة السكرابل، وأستطيع الخروج حينما أرغب . أنا حرة، وأفعل ما يحلو لي.″

″إن لم أكن قد وجدت عملاً يعجبني، فذلك لأني لا أرى أهمية له، بينما يقضي الرجال حياتهم فيه . لا شك أن الرجل المتزوج مسؤول عن بيته، لأن هذا هو واجبه من حيث المبدأ . شخصياً، هذا الأمر يناسبني، ويتلاءم مع كسلي الطبيعي . هذا مثير للشفقة، لأني أميل إلى لوم نفسي لذلك ـ هذا أيضاً جزء من شخصية النساء : اللاتي يتصفن بعدم الاستقرار، واللاوعي . أعرف هذا.″

إذاً، هي حالة تنطوي على لحظات من المتعة، لكنها لا تخلو من مخاطر :

″لا أشعر بأني راشدة، لأني في الحقيقة...، فضَّلتُ راحتي على حريتي . بمعنى أنني أفيد من وجود المال . هذا يبدو لي جهداً غير طبيعي، حاولتُ أن أتقدم إلى امتحان، فبدا لي الأمر جنونياً . وأحياناً أبذل جهوداً من أجل حريتي . لكني، في نهاية المطاف اخترت الراحة، وقدمتها على صحتي.″

″إذاً هذا يصطدم ببعض العقبات . إذ تكون الواحدة منا تابعة . لا شك في أن المرأة التي لديها مهنة، هي امرأة مستقلة، وحرة في أن تفعل ما تريد . ولهذا نتائجه.″

هذه الحالة من التبعية، والأريحية الممنوحة للنساء، لأننا لا يُطلب منها الجسارة نفسها التي نميل إلى طلبها من الرجال، تفضي بالمرأة إلى عدم شعورها بأن الآخرين ينظرون إليها بعين الجد، وهو ما تعيه المرأة التقليدية تماماً :

″حينما تعاني المرأة من الضعف، فهذا لا يدهش أحداً، ولا يصدم أحداً . أما حينما يعترف الرجل بضعفه، يقال أنه مصاب بانهيار عصبي، لأنه يجهد نفسه في العمل.″

أو إنها تشعر بأن ثمة ما ينال من قيمتها :

″حينما أعمل مع الرجال، أكون بمثابة فأرة صغيرة . إذ يوجد ثمة حاجز . يوجد ثمة حائط، ومهما كان رجال جيلي متسامحين ومنفتحين، فلدي انطباع أنهم حينما يقدمون شيئاً إلى المرأة، فهو نوع من الفضل يمحضونه إياها : ″يمكن أن نعترف لهن بأنهن يتمتعن بما يكفي من الذكاء″، لكنه ليس حقيقياً!″

## 2 . لغة النساء لغة الرجال

قد يشكل هذا الاختلاف حاجزاً يقسم العالم إلى ذكوري وأنثوي . مع أنه يمكن الشعور بتكامل هذين العالمين، فهما يبدوان للمرأة التقليدية غير متجانسين ولا تواصل بينهما . وكأن التواصل بين الرجال يتم بصيغة أخرى تختلف عن الصيغة التي يتم بها

بين النساء . غالباً ما يُنظر إلى الرجال والنساء بوصفهم نوعين لا يتكلمان اللغة نفسها :

″ترى المرأة الأشياء الصغيرة، ومن ثم لأشياء الأساسية . تأتي المسألة المهمة بعد تحريك المسائل الصغيرة الداخلية . وبينما يرى الرجل المسألة الرئيسة ثم المسائل الباقية لاحقاً، فإن هذا يختفي بسهولة .″

″أنا، حينما أروي حدثاً لزوجي أتنبه إلى أنني أقدم له كمية من التفاصيل .، وحينما يروي لي شيئاً، فإنه يعبر عنه بثلاث كلمات . إنه مختصر . إنه الأساسي . للرجال رؤيتهم الخاصة لما هو أساسي .″

ومن ثم فهم يفكرون بطريقة مختلفة :

″حينما نكون مع الرجال، نصطدم بأناس يفكرون بطريقة مختلفة″

″أرى اختلافاً، وهوة هائلة بين لغة النساء فيما بينهن، ولغة الرجال مع بعضهم . وبسبب الفارق الضخم بين عقل الرجل بوصفه رجلاً والمرأة بوصفها امرأة، يكون الأمر أعقد، وأكثر تركيباً وأكثر . . . أتخيل أن في دماغ المرأة تفرعات في كل الاتجاهات . . . تفرعات دقيقة، دقيقة جداً، بينما أرى في دماغ الرجل تفرعات كثيفة وغير كثيرة . كثير من الأشياء المختلفة، والأفكار . . النساء أقل سذاجة . النساء أقل سذاجة من الرجال . الرجال أيضاً أكثر صراحة، وأكثر مباشرة . المرأة أكثر تعقيداً .″

هذه اللغة المختلفة التي تعكس فكرة مختلفة لدى الرجال تبدو أكثر تعقيداً، لأنها أكثر مواربةً، ويصعب أن تشق طريقها نحو فهم الرجال . لهذا ترى النساء يشعرن بأنهن مستبعدات من عالم الرجال في أغلب الأحيان، فيبقى غريباً عنهن، لأن فيه يتم تداول لغةٍ وأشياء لا يدركنها :

″للرجال جو الأصحاب، إنه الاستراحة بعد العمل، من أجل الترويح عن النفس، والضحك، وقول أي شيء . ثمة رجال يحتاجون إلى الخروج هكذا، ليلعبوا الورق، من دون نسائهم، لأن الأمر هكذا على هذا النحو .″

″لديهم اهتمامات أكثر نوعية، وهناك يعيشون حالة من التواطؤ في ما بينهم .″

″الرجال يهتمون بالقضايا الفكرية، والاقتصادية، والسياسية أكثر من اهتمام النساء بها . أي يهتمون بقضايا أعلى على سلم القيم.″

″ثمة نساء ما يزلن أكثر استقلالية، لا يجرؤن على التطرق إلى موضوعات ″خاصة″ أو يزعم أنها خاصة بالرجال، ويصعب عليهن التطرق إلى الموضوعات السياسية، والفلسفية.″

ولا يطمحن إلى هذا بالضرورة :

″إنهم يتكلمون كثيراً عن عملهم . غالباً ما أسمع هذا . أبي، وإخوتي، وأصدقائي : عمل، كلام في ما هبَّ ودبَّ. . انهم يشعرون أن عملهم يمنحهم نوعاً من الأهمية . هذا أكيد . أما أنا، فهذا يضحكني، إذ من الحماقة أن يكون العمل مسوّغاً للإنسان . أرى أن هذا غير صحيح . فالمرء لا يوجد بعمله . بل بذاته.″

″ أرى مجموعة من ثلاثة رجال، جيداً بصدد نقاش سياسي . ثم، ثلاثة نسوة، حسناً، يتكلمن عن الغداء الذي موعده ظهراً ـ خلال خمس دقائق، غير جاهز ولا بد من تحضيره، على سبيل المثال . إذاً، ليس لهذا علاقة . ليس لدينا نفس الاتجاهات في العمل.″

زد على هذا أنه يصعب التوافق بين هذين العالمين، كما يبدو أن ثمة مشكلة في اختلاطهما . وسواء تعلق الأمر بربات البيوت، أو بالعاملات في الخارج، فقد جربن أمسيات أو اجتماعات مختلطة، حيث، بعد حين، تنفصل النساء عن الرجال، كما ينفصل الرجال عن النساء ليناجي كل من الطرفين نظراءه :

″في لحظة معينة، تبدأ مناقشة ذات طابع عام . لكن عندها، وفي أغلب الأحوال، تتشكل الجماعات بعد وقت معين، يتجمع الرجال مع بعضهم، والنساء يتجمعن حول بعضهن.″

″النساء يتحدثن عن الملابس، حينما نلتقي في بيوتهن على العشاء . وخلال السهرة، نتحدث عن الملابس، بطبيعة الحال ( ... ) وللرجال أيضاً محدثاتهم، ولا يختلطون أبداً بهذا النوع من المحادثات.″

إذاً، تبدو اهتمامات الرجال ذات طبيعة مختلفة، ولا تتناسب مع اهتمامات النساء على الإطلاق :

″حينما نجلس إلى الطاولة، نتحدث في موضوعات عامة . لكن تأتي لحظة حيث يتناولون فيها الكلام . فهم بحاجة للتكلم عن شؤونهم الخاصة . وهنا، ″كيف نتصرف؟″ . لدينا الكثير من القضايا، حول التصدير، أو حول هذا الموضوع أو ذاك . ″أعرف أن هذا الحديث يبعث الضجر في نفوس بعض النساء، فيتجمعنَ، ليتحدثن عن قضاياهن الخاصة . بينما أنا، أرغب بالانضمام إلى الرجال، لأتعلم منهم . إنهم يثيرون اهتمامي.″

ويؤخذ على النساء ميلهن إلى الانفصال عن الرجال، وعدم الاكتراث إلا بمجالات تتصف بالمحدودية في أغلب الأحيان :

″إن أردن إشراك الرجال في محادثاتهن، فمن الأفضل تغيير موضوع المحادثة، لأنه ليس لدى الرجال الكثير مما يمكن أن يقولوه حول اختيار فستان معين، والدُرجة الحالية، أو طريقة تربية الطفل، أو تحضير قالب من الحلوى . إذا أردنا إشراك الرجل في محادثات السيدات، فمن الأفضل إيجاد موضوعات من شأنها شد اهتمامهم.″

في جو نحس بأنه غير صحي :

″بما أن المرأة أكثر عاطفية، يكون الجو مشحوناً – كما هو حال ازدياد شحنة كهربائية من العاطفة لدى مجموعة من النساء، لا نجدها في مجموعة من الرجال، وحينما تختلط المجموعتان، كأن التيارين الكهربائيين يتكاملان أو يلغي أحدهما الآخر، وفي نهاية المطاف، يخيم جو من السلم . تجعل شحنة المرأة العاطفية، أو العفوية، وربما تخيُّلاتها، من يعترضها متحضراً إلى حد ما.″

## 3 . حينما يتكلمن، يثرثرن

النساء التقليديات يلتقين ببعضهن سواء كنَّ مرفوضات، أو مستسلمات، أو مستبعدات . وسواء كنَّ منزعجات أو مسرورات من غياب ″الآخر″، فإنهن يشعرن بثقل النظرة

القديمة حول موضوع التواصل في ما بينهن . وهن واعيات تماماً بأن الرجال لا يهتمون بما يقلنه فيما بينهن، كما يعين أيضاً أن أقوالهن عديمة الفائدة . وغالباً ما يتحملن مسؤولية النظرة الدونية إليهنَّ بوصفها عبئاً لا يسعهن الدفاع عن أنفسهن ضده .

وعي الاختلاف هذا بالنسبة للرجل، و"التقليل من أهمية" الخواص، والسمات التي يتميز بها هذا الاختلاف، والشعور "بالتشابه" مع السمات الواضحة، يفضي إلى تصور للتواصل بين نساءٍ يتسم بموقفين متزامنين :

أ ) أحدهما ينطوي على اعتبار الثرثرة شيئاً سخيفاً، لا قيمة له، ويكرهه الرجال؛

ب ) الثاني ينطوي على أن تقول المرأة لنفسها أنها تثرثر، وتحب الثرثرة، وتمارسها بين النساء فقط .

ثمة عدد من النساء يرضين بهذا الحكم ويضطلعن به بوصفه جزءاً لا يتجزأ من طبيعتهنَّ التي يعانين منها في بعض الأحيان، لكنهن لا يشعرن بالقوة أو بالرغبة في التخلص منها :

"ليس الأمر هاماًبكل تأكيد، لكن ممارسته تغرينا، لأنه يأتينا هكذا، لأننا ضعيفات . إنه علامة ضعف، إذ لو لم نكن ضعيفات، لما تكلمنا إلا بأشياء هامة ."

"أما أنا، فأحب الثرثرة مع أني لم أدخل المدارس، ومثلي كثير من النساء . . . أود الثرثرة مع رجل يسمعني ويرد علي . ( . . . ) . إني أتألم، أحس تماماً بأني أحب الثرثرة، وأعاني من كون زوجي لا يحب الثرثرة الدائمة تقريباً، وفي المساء أحب قراءة مذكرات هذا أو ذاك، لأن هذا يكون لدي الانطباع بأني أشترك في محادثة ما ."

حتى حينما يلاحظنَ أن الثرثرة غير مهمة :

"حديث النساء مهم، لأنك دائماً تسمع الشيء نفسه يتكرر . وحينما لا يتكرر من وقت لآخر، حينما يكون من الضروري الحديث عن أشياء معتادة، كالملبس، والطعام، حسناً، لا بأس . حينما يتكرر هذا كل يوم، يصبح فعلاً بلا قيمة ."

″إننا نثرثر حول الأشياء المعتادة كل يوم، أشياء لا أهمية لها . نتكلم عن الأكل، والشرب، ونتكلم عن أشياء نراها، ونحسها، والتي نقاربها كل يوم . هذا ما تقوم عليه الثرثرة . وهو في متناول الجميع . لا أومن بوجود حوارات متوكدة بين الكثير من الناس . إننا نتكلم في أشياء غير مهمة.″

يرى بعض النساء أن ثمة اختلافاً بين الثرثرة والمحادثة بين النساء . حينئذٍ تراهن ينسبن يحصرن هذه الثرثرة بنساءٍ أخريات . ولا يرين فيها سوى تمهيد للدخول في موضوع معين :

″الثرثرة تمهيد . فقد نثرثر بسبب انقطاعنا عن بعضنا لفترة طويلة . قد نثرثر لساعة، أو ساعتين، وفجأةً، يبرز موضوع نهتم به.. . فتنطلق المناقشة . فنتعرف على ما في حياتنا العملية، إن شئتِ، فنمر على أحداث صغيرة، وآخر أخبار حياتنا اليومية . فنثرثر حول هذا الأمر فترة معينة : ″ رأيت أحدهم″؛ ″شاهدت مسرحية معينة ″؛ وربما نتحدث، في أمور أكثر أهمية، وأكثر عمقاً.″

″نادراً ما يحدث هذا معي، وغالباً ما تتمحور الثرثرة حول أشياء شخصية جداً، وقضايا حميمية . أرى أنه لأمر مؤلم أن أنشر حماقاتي على هذا النحو، إنه أمر مؤلم.″

ويضيف هذا الشخص نفسه، في موضع آخر، وفي السياق نفسه :

″قد نحتاج أحياناً إلى شخصٍ لتنظيم الحالة التي نجد فيها أنفسنا . هذا أكيد . فضلاً عن ذلك، الأمور تجري دائماً على هذا النحو . حينما نعاني من بعض المشاكل، لا بد لنا من شخص ثالث، إذ حينما يدور الأمر بين شخصين، لا بد من وجود شخص ثالث ليقوم بتنظيم الأفكار.″

وثمة نساء أخريات يقبلن الأمر من دون تردد بوصفه شكلاً من أشكال التواصل المفضل الذي يدور حصرياً بين النساء، ويصرحن بتفضيلهن هذا، ويخلعن عليه صفات وأبعاداً إيجابية :

″الثرثرة، كما أراها، هي حينما تستخدم كلمة ثرثرة، فهذا ما يظنه الرجال؛ هذا ما يراه الرجال ( ... ) أما بالنسبة لي، فلا أميز بين الثرثرة والكلام الجدي . إني أرى فيه قيمة، ولا أصنف نفسي كثرثارة . بالنسبة لي، التكلم عن الزينة (

ماكياج ) ، له نفس أهمية الحديث عن الحياة الجنسية، أو الدين . أنا لا أُفاضل بينها . بينما الرجال يفعلون ذلك، ويُلبسون الثرثرة كل ما هو تافه، لا يتطرقون إليه . هذا أنثوي، إذاً هو ثرثرة .″

″إنها تثرثر، وتحدثني عن أمر آخر قامت به ابنتها . هذا يفرج عنا . ونحن نحب هذا كثيراً .″

يمكننا والحال هذه، قول أن قبول المرأة بوصف نفسها بالثرثارة لا ينطوي على اللبس . وهو بالنسبة لبعض النساء قبول كامل .

في هذه الحالة، فإن معرفتنا بالدلالات الإيحائية للحديث بين النساء وبحدوده، يعادل الثرثرة ويتسم عموماً بالموضوعية .

ترى نساء أُخريات وجود اختلاف بين الثرثرة وطريقة التكلم . حينئذٍ، تعد الثرثرة أمراً سطحياً، وتمهيداً، لكنهن يعترفن بفائدة معينة يجنينها من هذه الثرثرة، وإنهن يتحملن مسؤوليتها .

لكن هذا التمييز ليس دائماً . يبرز حينما كنتُ أبدأ الحديث مع من أقابلهن من النساء، ثم يتغير بعد بعض الجمل . إذ تستمر انزياحات الدلالة المعطاة لكلمة ثرثرة، فتشير تارة إلى التمهيد، وطوراً إلى التواصل المفضل، الذي يمكن أن يقوم بين النساء .

يمكن القول عموماً، أن ″المرأة التقليدية″ تفضل التكلم إلى النساء، بغض النظر عما إذا كان الكلام ثرثرة أم لا . هذا الموقف المؤيد لشكل الاتصال الذي تعرف أنه مكروه، يقوم بدور المصفاة الإدراكية في اختيار العناصر الأساسية، وبناء الأبعاد البارزة للثرثرة، أسبابها . يبدو أن القول المأثور ″إن الطيور على أشكالها تقع″، ينطبق على النساء المعنيات، وإن مصيرهن المشترك مع نساء أخريات يشكل عاملاً مهماً في انطلاق الثرثرة . لكن ثمة عناصر وعوامل أخرى ترتبط بمضمون الثرثرة وأسلوبها، لأن طريقة الثرثرة مهمة جداً . فضلاً عن هذا، يبدو أن هذه الطريقة تستجيب لحاجات نوعية تماماً . في المقاطع الآتية، سننظر في صيغ أسلوب الثرثرة، ومضمونها ووظائفها .

## 4 . تفضيل المرأة لمجموعتها

## أ ) إن الطيور..

إن شعور المرأة بوجود أشياء تشترك فيها مع نساء أخريات ( أو بعض النساء الأُخريات ) لا يمكن تقاسمها مع الرجال، يبعث فيها شعوراً قوياً بالارتياح، والتشابه، والتواطؤ :

"حينما أكون صحبة النساء أشعر بالتواطؤ، والراحة . ها قد فهمت، لقد تفاهمنا! هوذا الأمر! بل حتى حينما لا أتفق معها، أشعر بالراحة."

"هناك بيننا نوع من التوافق، والتواطؤ الذي ربما يعود إلى نظرتنا للأشياء من زاوية واحدة، حينما نعبر عن أنفسنا وسط النساء، حول علاقاتنا بالنساء."

هذا الإحساس بالتشابه ينشأ عن اتفاقٍ يعود إلى أن النساء يفسرن الشيء في الجو نفسه، ما يجعل المرأة الأخرى قريبة جداً :

"توجد فئات مختلفة من النساء . هناك الصديقات، ويعد الجلوس معهن بمثابة متعة، لأننا نتحدث عن الماضي، وعن بعض النقاط المشتركة بيننا، وعن شبابنا، وأشياء أخرى كثيرة . بيننا روابط مختلفة وعلاقات من كل نوع، لا يمكن لأي شيء أن ينسينا إياها . إنها متعة، لأننا نتحدث وفق موجة واحدة . تكفينا أنصاف الكلمات لكي نفهم بعضنا . وردود فعلنا متشابهة حول ما نحن عليه، وحول العائلة ( ... ) نتبادل النصائح، ونواسي بعضنا، ونتكاتف، لسبب أو لآخر...، ونحاول أن نساند بعضنا، لوجود ما أسميه التضامن بين النساء . إنه التضامن."

"لدي علاقات وتبادلات، ربما تكون أغنى مع النساء . فتراني أفهم طريقة معينة في التفكير، على الأقل في القضايا اليومية . أظن أن النساء يفهمن بعضهن بشكل أفضل، لأنهن يعشن الشيء نفسه . لو كنا قد عشنا الأشياء نفسها مع الصبيان ونحن صغار، ربما اختلف الأمر."

إنها الذات تقريباً :

"في تلك اللحظة، حينما أكون مع صديقات حميمات، نعرف بعضنا إلى حد كبير فنتبادل النصائح، والآراء، والأفكار، والخدمات، وكل ما من شأنه المساعدة في

الحياة بشكل طبيعي وبسيط جداً . ثم، إننا نعرف، إنها ليست ذاتاً ثانية، لكنها الشيء نفسه تقريباً.″

أحد أهم مظاهر هذا الارتياح يمر عبر الأمومة . فكونها امرأة، وكانت أماً من شأنه أن يصنع عالماً :

″حينما تكون إحدانا أماً، فهي سعيدة بذلك، وبأنها عاشت هذا النوع من الأشياء . فتتملكنا الرغبة بالحديث، بل وتكراره حول هذا الموضوع . الذي يبعث في نفوسنا الفرح، ويمنحنا الشعور بالسعادة التي عشناها ونريد أن نعيشها ونحن نتحدث مع امرأة أخرى . هذا رائع.″

″إذا تحدثت امرأتان عن حملهما، وعن أطفالهما، وعن أي أمر آخر بين بعضهنَّ فإن ذلك...، يدور بين امرأتين لهما الجسد نفسه، فإنهما تشعران بالشعور نفسه . إنها تعاني الشيء نفسه لديها، وفيها . وقد يفهم الرجل من دون أن يشارك فعلياً.. . إذا تحدثت إلى أم، أكون بالغة السرور . أشعر فجأة بشيء ما، شيء مشابه، لا يوجد عند الرجل.″

عالمٌ يستبعد الرجل حتماً :

″إنه شيء خارجي تماماً عن الرجل، إنها أشياء لا يشعر بها الرجال الذين هم داخليون عند النساء . مغامرة الأم والطفل، وكون المرأة أماً وتحمل طفلاً، هذا سر رهيب لا يمكن للرجل الشعور به على الإطلاق، ولا يمكنه إدراكه أو فهمه أبداً .

## ب ) .. . على أشكالها تقع

هذا الشعور بالتشابه، والتواطؤ والانفراج يساعد على جعل الكلام بين النساء أيسر :

″أفضل التكلم مع النساء . لأني أعتقد أنه أسهل بالنسبة لي.″

″ثمة احتكاك . المزيد من الاحتكاك . أجد نفسي مرتاحة مع صديقة-امرأة أكثر مما أكون مع صديق - شاب ( ... ) هناك موضوعات يسهل التطرق

إليها مع المرأة أكثر من التطرق إليها مع الرجل . إننا نودع المرأة سرنا بيسر، ونبوح للصديقة بكل ما يخطر في بالنا . أما بالنسبة للرجل. . . فالأمر مختلف.″

″أتكلم مع المرأة بحرية أكثر.″

## ت ) عمَّ يتحدثن يا ترى؟

تبدو الثرثرة، في جزء كبير منها مرتبطة بموضوعات المحادثة . لهذه الموضوعات صلة بالاهتمامات المشتركة بين النساء من زوجات، وامهات، وعاشقات، وخاضعات لنفس الظروف الفيزيولوجية والبيولوجية؛ النساء اللاتي لديهن تجارب شبيهة بتجارب نساء أخريات : كالقضايا العاطفية، والغرامية العابرة، والرجال الذين لا يفهمونهن، والأطفال الإشكاليون؛ كلها موضوعات تفهمها النساء، ويتفاهمن عليها :

″الموضوعات متنوعة . حينما تلتقي النساء ببعضهن، نفهم بسهولة أنهن يتحدثن عن مشاكلهن كربات بيوت، وأمهات . نعم، هذه حقيقة . كل شيء يعد مشكلة بالنسبة للشخصية الموجودة، في نهاية المطاف.″

″نتبادل أفكاراً حول الأثاث، على سبيل المثال، وكل ما يتعلق بالبيت، والنزهات، والنشاطات التي قمنا بها خلال الأسبوع، وحينما تعترضنا مشكلة كتلك التي أعاني منها الآن . لدي صديقة أعدها سنداً لي، ويمكنني الاعتماد عليها بكل تأكيد.″

″حينما تبلغ الفتيات السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرهن يتحدثن عن الحفلات الراقصة . فتيات جيلي كن يتكلمن كثيراً عن الأولاد، والعلاقات، وما تعرضن له من مداعبات . ثم، بعد ذلك، نتحدث عن تنظيم البيت، والأطفال، ثم، إذا كانت علاقتنا حميمية، وبعد أن كبرنا نتحدث عن المشاكل . أظن أن النساء يتبادلن قضاياهن العاطفية، والغرامية، والزوجية، وما إلى ذلك .

وغالباً ما يتم تناول الجانب الحميمي خلال هذه المحادثات :

″الواضح، حينما تتكلم النساء مع بعهن، هو أنهن يجرين محادثات أكثر حميمية مما تكون مع الرجال . فيكشفن لبعضهن عدداً كبيراً من الأشياء، حتى

وإن كانت تتعلق بأمور عادية، وطريقتهن في عيش انطباعاتهن، فهن يذهبن إلى أعماق الأشياء في ما بينهن.″

الحديث عن الذات، والأشياء الشخصية، والحديث عن حياتهن وحياة الآخرين، يعني في الحقيقة إعطاء الواقع، ويعني فهماً أفضل للأشياء التي نفعلها كل يوم .

## ج ) كيف يتحدثن عن هذه الأشياء؟"

ليست موضوعات المحادثة هي المهمة فحسب، بل الطريقة التي تتحدث من خلالها النساء عن تلك الموضوعات . إذاً، تبدو خصوصية الثرثرة كامنة في أسلوبها . وهذا الأسلوب يتميز بإمكانية الانتقال بحرية من موضوع لآخر، من دون العودة إلى الموضوع السابق، ومع ذلك تراهن قادرات على إيصال مرادهن :

″إننا نتكلم في كل شيء : عن مهنتنا، وحياتنا العاطفية، أو عن الطريقة التي نفهم السياسة من خلالها، أو عن وضع المرأة مع زوجها، أو عن الموسيقا، أو عن كتاب معين، أو عن أسفارنا، إننا نتحدث في كل الأمور . لا أعتقد بأننا نتحدث فعلاً عن موضوع واحد فقط – إلا إذا كانت المرأة المعنية لا تريد التطرق إلى هذه القضايا كلها – لكن في اعتقادي أنه لا يوجد موضوع لا نتطرق إليه مع الصديقات . فليس ثمة رقابة . بينما تراها حاضرة مع الرجل . هذا حتمي.″

إنه حديث لا ينقطع، وقفز بين موضوعات لا رابط بينها :

″تنتقل المحادثات مع النساء من موضوع إلى آخر . نكون بصدد الحديث عن موضوع فننتقل إلى موضوع آخر، ولا نرى في هذا الانتقال أي مشكلة، وقد نعود إليه لاحقاً . من دون أي تحفظ . وقد تكون أحاديثنا مجرد انطباعات أكثر منها مناقشات، وما إلى ذلك، أما مع الرجال فلا أكون مرتاحة بالضرورة، لأني . . . أُصنف بوصفي سطحية تماماً، أو عاطفية، أو انفعالية . أما حينما أكون مع النساء، فأنا على يقين أنهن لن يطلقن الأحكام علي.″

″أفضل التكلم مع النساء . أعتقد أنهن يفهمنني . مثلاً، حينما أتكلم مع س، أنتقل من موضوع لآخر، ولا أسأل نفسي عما إذا كانت تتابعني أم لا . إذاً، في أغلب الأحيان أفضل الحديث مع النساء.″

إن إمكانية الانتقال بحرية من موضوع لآخر، من دون أحكام، تضفي على التواصل بين النساء شعوراً بالحرية، وهو أحد الأبعاد المهمة للثرثرة، لأنه يتيح للنساء فهم عالمهنَّ واستكشافه وتصويره بطريقة كلية، وبكل تفاصيله . ويتكون لدى النساء انطباع بالقدرة على ملامسة عمق الأشياء، من دون كبت، أو قيد من أي طبيعة كانت . المرأة، وهي تثرثر أشبه بالرسام التكعيبي، تبحث عن مختلف أوجه الموضوع أو الموضوعات التي تناقشها وتقدمها في كلامها .

ولكي تتمكن المرأة من الانتقال من موضوع إلى آخر، وهي موضوعات لا يربط بينها رابط، ينبغي على الآخر أن يفهم من دون شرح . ومن ثم، فإن الأسلوب الخاص بالثرثرة يدين كثيراً للمُضمَر، الذي يترك للمخاطب شأن تفسير ما وراء هذا المُضمر . كل يضع فيه ما يشاء . المضمَر يفتح كثيراً من الاحتمالات التي قد تضيع لو قيل كل شيء صراحة :

″حينما نخلو إلى بعضنا، تكون الكلمات حمالة أفكار ومشاعر قد تختلف عما يمكن أن تكون عليه لو كانت لدينا علاقات مع أصدقاء آخرين . فبيننا ماض مشترك يكفي استحضاره، كحادثة غريبة مرت بنا قد لا تعني شيئاً بالنسبة للآخرين، حتى نكون. . . نكون فيه متساويات، إذا شئتِ . ولا نحتاج إلى أن تنهي المرأة المقابلة جملتها . إذ تعرف تماماً ما تريد قوله . أوه! نتابع، بل لا تحتاج إحدانا إلى الاصغاء للأخرى . كلمتان، أو ثلاث كلمات، تقدم لنا معالم الفكرة، نفهم تماماً ما ترمي إليه . تتحول اللغة إلى إطار شخصي جداً، وحينما نكون على معرفة جيدة بالناس ترانا نسمع أكثر.″

لكن الثرثرة النسائية ليست مجرد شكل ومضمون فقط . إنها تشبع في الوقت نفسه، حاجات نوعية، وتقوم بوظائف لا يمكن لأي شكل آخر من أشكال الاتصال القيام بها .

## ح ) البعد التوصيلي ( شد الانتباه )

الثرثرة مع نساء أُخريات يحمل إلى المرأة التقليدية شعوراً بالراحة، والحرارة، والحنان والتفهم . إنها القدرة على خلق احتكاكٍ بامرأة واحدة أو عدة نساء، والحفاظ

عليه :

″أحب الحرارة والألوان كثيراً، ورواية حدث بكلمتين، يعني أنك تخلع منه جزءاً كبيراً من روحه . أما إذا خلعنا عليه الكثير من التفاصيل فهذا يشخصنه ( ... ) صديقاتي يمنحنني صداقة، وحرارة أخوية تقريباً . محبة.″

″يبدو لي أننا بحاجة إلى الاغتناء، ولعلنا، في الوقت نفسه، بحاجة إلى الاختلاء ببعضنا في جو من الصداقة . حتى وإن اقتصر هذا على وقت اللقاء والانتهاء منه، فإننا نتفرق في الطبيعة . لكن يبقى وقت مهم للصداقة النسائية.″

في هذا الجو من الحرارة، تشعر المرأة التقليدية أنها في حالة مناجاة . فهي تترك العنان لنفسها تماماً في حضور أفضل الصديقات، فتستطيع أن تروح عن نفسها، وتفضي بأسرارها، وتتحرر . لا سيما أنه من الأسهل عليها الدخول في بوح تفهمه النساء الأخريات من دون حاجة إلى تفسيرات :

″نشعر من خلال بعض المواقف نشوء بعض الأفكار، وبهذه الأفكار نعرف، أو نستعجل بعض الأشياء . لكن للحديث بشكل صريح عن المشاكل، لا بد أن نكون على علاقة ثقة وثيقة جداً.″

تجد فيها روح التضامن مع النساء اللاتي يشاركنها قدرها وويلاتها :

″حينما نفضي لبعضنا بأسرارنا، فذلك لأننا لم نعد قادرات على الاحتمال، لم يعد بوسعنا الاحتفاظ بمشاكلنا لأنفسنا، إنه فعلاً البحث عن مخرج، ومناجاة موثوقة، وسرية . لذلك نتجه إلى المرأة أكثر لأنها تفهم ردود الفعل أكثر، ولأن ردود فعلنا تتشابه تقريباً، كما لو كنا نعاني مشاكل متشابهة.″

″حينما تعمل النساء على معالجة المشاكل، تراهن يتحدثن عنها لأنها تؤلمهنَّ، وأنهن سيتكلمن عنها بحرية . إنهن لا يسعين إلى حماية أنفسهن أو الاختباء . ومن ثم، فهن يدعن ألمهن، وشكوكهن ونقص الثقة لديهن تتفجر.″

وتجدهن موضعاً للثقة المطلقة :

″ثم، هناك الجانب الآخر من المرأة، التي نعتمد عليها، والوثوق بأن محادثاتنا تبقى بيننا، ولن تنتشر، لأن المرأة ميالة إلى الحديث يميناً وشمالاً عما يمكن أن

يقال، مما يجعل حديثها، في نهاية المطاف، سطحياً جداً . لكن هناك نوع آخر من النساء من الممكن الاعتماد عليه، وهو نوع جدي تماماً . يمكن أن نتحدث إليها بكل همومنا، ومشاكلنا . فحينما نكون مصابين بانهيار عصبي، يمكن التوجه إليها، فتحاول أن ترفع من معنوياتنا . وهي لا تقول لمن هب ودب أن تلك المرأة تعاني من انهيار عصبي .

إنها أيضاً علاج للوحدة والعزلة :

"من الجيد أن يحظى المرء بأشخاص يتقاسم معهم مشاعره . فهذا يخرجه من عزلته."

"ليس هناك أحب إلى النفس من أن تعرف بأن هناك من هو مستعد للاستماع إليك في ساعة معينة، عند الساعة الرابعة والنصف، أوفي وقت الظهيرة . إذا أردت الخروج في فترة بعد الظهر بعد أن مللت المقام في البيت، تراني أذهب إلى المدرسة، لألتقي شخصاً معيناً، أقول لنفسي سنقضي وقتاً مسلياً خلال فترة بعد الظهر هذه ( ... ) أخرج من بيتي، حيث يمكنني قضاء فترة ما بعد الظهر مع من أتفاهم معه جيداً، ولدي الخيار بين 15 أماً يمكنني التفاهم معهن . إنه شيء رائع."

ولا يقتصر الحديث عن لحظات الحزن، بل هناك ثمة ما يضحك، ويريح الأعصاب :

"بعد الانتهاء من الحديث عن الأشياء الجدية، نعود إلى أشياء أكثر خفة . فنضحك حتى تسيل دموعنا فرحاً . بعدها ترق قلوبنا لصديقة لا نعرف ماذا حل بها."

"الثرثرة تعني أن نجلس في مكان ما، لنسترخي، أي أن تقولي ما يدور في رأسك، وما ترغبين في فعله، والمكان الذي تريدين الذهاب إليه . نتحدث في هذا كله . إنها أشياء عادية، لكنها تافهة إلى حد ما . لكن هذا طبيعي، لأننا لا نفكر بما نريد قوله."

"إذا التقينا، نكون مسرورات، وهذا يعجبنا كثيراً، غريب، نضحك، ونقضي لحظات ممتعة، لكن حينما نغترق، ينتهي كل شيء . ولا يبقى مما تداولناه الشيء

الكثير .″

## خ ) بعد الحرية

ما يمنح المرأة التقليدية شعوراً بالحرية التي يستحيل أن يتحقق لها في مكان آخر هو التمكن من الحديث بحرية عن كل شيء ولاشيء، والانتقال من موضوع إلى آخر من دون التعرض ″للرقابة″، وأن يكون الإنسجام مفهوماً حتى بما ينطقنه من أنصاف الكلمات، . إذاً، فهي تتطرق إلى جميع الموضوعات بحرية، ولا تشعر بأنها مُجبرة على التمثيل :

″مع المرأة، تكون مشاعري، وأفكاري، وأفعالي حرة . أما مع الرجل، فهي ليست كذلك! إنهم ليسوا أحراراً .″

″المحادثات التي أجريتها مع النساء أراها لحظات رائعة، لأننا لسنا بحاجة إلى مراقبة أنفسنا، نتصرف بشكل طبيعي، إذ حينما نريد أن نبدو بالغات الثقافة، يمكننا دائماً أن نكون مثقفات، لكن حينما لا نرغب في ذلك لا نكون مثقفات . إذاً، حينما نكون بصحبة الرجال، يتكون لدي انطباع بأنني سألعب دوراً ما، لأن الرجال يرونني بطريقة معينة، وفجأة يصبح من الصعب علي أن أكون طبيعية .″

″النساء متفاهمات دائماً . يمكن أن يكن هنَّ أنفسهنَّ من دون غش . لا أريد القول إن المراة لا تفعل ذلك مع زوجها، لكن النساء هن النساء، لأنهن مع الأزواج، ياإلهي! ألا يجب أن يكن كما يرغب الزوج .″

## د ) البعد الإخباري والإدراكي

الحديث عن أمور تتعلق بالمشارِكات، وتلك التي تثير اهتمام النساء، يمنح هذا التبادل بعداً لا يثير شك أولئك الميالين إلى القول بأن الثرثرة مجرد لُمامة ملفوظات تخلو من أي قيمة إخبارية وإدراكية . ترى المرأة التقليدية أن الثرثرة مصدر معلومات متجددة باستمرار، وأن ما من شأنه عدم إثارة اهتمام الرجل قد يعنيها تماماً، لأن هذه المعلومات تتعلق، في نهاية المطاف، بحياتها وعملها اليومي :

″الحديث إلى أحدهم، يمنحك حياة جديدة في نهاية المطاف . فمن يتحدث معك ينقل إليك شيئاً من حياته، قطعة من حياته . إنها هدية، وشيء مفيد، إلى حد ما، تبعاً للشخص الذي يكلمك.″

″ثم، هناك، أرى في المدرسة بعض أمهات أصدقاء أطفالي، ويمكنني قضاء نصف ساعة من الثرثرة معهن حول كل الأمور قبل خروج الأولاد من الصف . هناك دائماً أشياء جديدة عليَّ معرفتها.″

التبادل الكلامي بين المرأة التقليدية والنساء الأخريات لا يقدم لها المعلومات اللامة فحسب، بل يسمح لها بفهم مداخل ومخارج السؤال، وتنظيم أفكارها أيضاً :

″إن التعبير عما أحس به، وتلاشي خجلي تدريجياً لأقول ما أفكر فيه، وما أشعر به، وأعانيه . التكلم بالنسبة إلي، هو هذا . ثم، قد يكون التكلم دفاعاً عن بعض الأشياء العزيزة على قلبي، وإثارة أشياء يمكن إنجازها سوية . إنه يتيح لي، أخيراً، تكوين ما أفكر فيه جيداً لكي أقوله، وأنتقل إلى الفعل بعد ذلك″ .

″حينما نصوغ شيئاً ما ينبغي أن نستكمل فكرتنا، إذا أردنا تقاسم شيء نعانيه، وشعور نحس به، أو ضيق نعيشه، إما أننا نريد تقاسمه، أو إعادة ما شعرنا به، هذا يسمح بمراجعة، وتحليل رد فعل الشخص المقابل، الذي نثق به، وربما يجعلك ترى الأشياء من وجهة نظر مختلفة وتطوير الفكر . هذا يساعدني كثيراً.″

يمكن الشعور بثرثرة النساء على أنها شكل من التبادل غير المركزي، حيث يمكن لكل طرف أن يتكلم بحرية على قدم المساواة في جو من المودة، والتفاهم والمشاركة التامة بين الأقران . كثير من النساء يرغبن أن يتم هذا التبادل مع أزواجهن، أو مع الرجال بشكل عام :

″أود الذهاب بعيداً مع الرجال، وأن ألتقي بالمزيد منهم، والنقاش معهم، وأن يكونوا فعلاً شركاء مساوين كما هو الحال مع النساء.″

لكن هنا ثمة اختلاف . حتى لو أرادت المرأة أن تكون مُكمِّلة، فهل المساواة ممكنة؟

# المرأة الحديثة
# الحل ( ت )

## 1 . القطيعة الأولى مع الصورة التقليدية : * ليس للذكاء جنس

ما إن يشعر الرجال والنساء بقوة الحدود بينهم، وتشعر المرأة – كفرد – بقدرتها على تجاوز هذه الحدود، والدخول في مجموعة الرجال، والاندماج فيها حتى تميل إلى رفض ما تتميز به المجموعة ″السابقة″ التي كانت تنتمي إليها، وتتحول إلى امرأة حديثة . ويمكن عد هذه المرأة الحديثة منحرفة، مقارنة بالمرأة التقليدية . فسلوكها الخاص منحرف بالقياس إلى السلوك الاجتماعي العام . إنها تقع في حالة قطيعة مع صورة المرأة التقليدية للمرأة المطيعة، التابعة، وغير العاملة لأنها تقترب من ميدانٍ مخصص تقليدياً للرجل : أي للذكاء والعمل، والفكر واللغة . وفي علاقاتها به، نجد ارتسام بصمة هذا الميل إلى المساواة على حساب الاختلاف بين الجنسين الذي نرى أنه بصدد التلاشي :

″إذا كان ثمة اختلافات في العصور السابقة، فهي تتجه اليوم إلى الزوال، الآن، الأمور تتغير .″

″أظن أننا بصدد الخروج من مرحلةٍ – عشتها قبل عشرين سنة تقريباً – كان يناقش فيها موضوع ما إذا كان ذكاء النساء يعادل ذكاء الرجال . بمعنى أنه كان يحسب للمرأة حساسيتها، ورهافتها، لكن المنطق خصوصاَ، والعقل عموماً، وكل ما هو بنّاء كان يعد بمثابة ميزة للذكاء الذكوري . بينما أظن أن هذا النوع من المناقشات التي تنتمي إلى المناقشات العنصرية، أي إذا كان لهذا الجنس البشري أو ذاك يتمتع بهذه الصفة أو تلك، أظن أننا تجاوزنا هذه الأشياء .″

وهو أمر تراه بلا أهمية :

"يمكن للمرأة أن تمارس اللغة نفسها، وتجري الحوار نفسه كما يمارسه الرجل على الصعيد الفكري، والعاطفي، وعلى الصعيد الاجتماعي ( ... ) . أظن أن المرأة قادرة على محاكمة الأمور بالطريقة نفسها التي للرجل . أنا لا أتحدث عن النساء اللاتي يحطن بي، بل عن المرأة التي تقع في نفس مستوى الرجل الذي تعمل معه . أظن أنها قادرة تماماً مثله على المحاكمة، من دون أي عقبة . أنا لا أشعر بوجود أي اختلاف بيني وبين الرجل."

"حينما أستقبل زملائي في بيتي، لا تكون المحادثة بيننا مختلفة سواء أكان الزائر امرأة أم رجلاً"

ومع هذا، فإن المرأة الحديثة واعية، حتى وإن شعرت بأنها على قدم المساواة التامة بالرجل، وبأنها حالة خاصة، وأن اقترابها من الرجال، وانخراطها في القيم الذكورية - حيث تتمتع بذكاء الرجل، وفكره ولغته - فإن لها طابعاً خاصاً، وعليها أن تفسر حقيقة شخصيتها التي ما تزال لافتة للنظر :

"أنا لا أرى اختلافاً كبيراً، ولكن أشعر بأنني لست وحدي في أثناء حوار معين مع الرجل، عندها أشعر بالاختلاف."

"إذا تحدثت مع رب عملي، مثلاً، على صعيد اللغة، أرى أن لغتنا واحدة، ونتبع الطريقة نفسها، تقريباً، في النظر إلى الأشياء . لا توجد اختلافات كبيرة ( ... ) على صعيد المناقشة، أرى أننا متساويان . لكن أرى أنه ما يزال على المرأة أن تقوم بأشياء كثيرة . عموماً، المرأة مع الأسف تكون في مستوى ثاني . أنا مسرورة، لأني لا أشعر بهذا الأمر . وهذا طبيعي . فأنا أختار أصدقائي تبعاً لما أريد . أنا لا أشعر بهذا الاختلاف . ليس عندي مشكلة في هذا."

بمعزل عن أي تصنيف :

"إنني قادرة على النقاش مثلهم، بل تراني أتكلم بسهولة أكثر من بعض الرجال . ومن ثم، فلا أرى فرقاً بيننا . تعبيري هو تعبير الفرد، وليس تعبير امرأة أو رجل."

مهما بدا موقفها طبيعياً، يظل مثيراً للانتباه وتراها تقول في سرها أن الدخول في ميدان الرجال ليس دائماً بالأمر السهل . إذ إن للتصورات الاجتماعية-الثقافية تأثيرها

الكبير، وقد يحدث أن أولئك الذين أصبحت المرأة مثلهم يتصرفون بطريقة أخرى ولا ينظرون إلى المرأة نفسها، أو إلى طموحاتها في المساواة بشكل جدّي :

″ينظر الرجال دائماً إلى اجتماعات النساء بوصفها شيئاً مضحكاً . مجتمعنا لا ينظر إلى المرأة بجدية على الإطلاق ( ... ) أظن أن المناقشات الجدية والعميقة محصورة بهم . أما مناقشات النساء فتقوم على التفاهات ( ... ) ولا يمكن للمرأة أن تواجه رجلاً لتدفعه إلى الحديث في موضوع جدي . هذا مستحيل من الناحية العملية . سيقول عنها أنها مزعجة.″

″لقد حوصرت وقيل لي : ″ أنت امرأة، لا تشرحين الأمر مثلنا، دعينا إذاً نناقش الأمر″ . قلت لنفسي، لم يعد لدي رغبة في تلقي ضربات من هذا النوع . لا بد من إيجاد وسيلة . لكنه شيء رائع أن تعيدك بعض الحالات إلى شرطك النسائي.″

## 2 . تفضيل العالم الذكوري

الرغبة في الدخول إلى مجموعة الرجال والاندماج فيه، قد يبدأ بمجرد تفضيل الرجال، لأنه رجل... .

″أفضل الرجال تحديداً . لا أحب أن أجلس كثيراً مع النساء . إنهم أسهل قياداً.″

″ألتقي بعدد لا بأس به من الصديقات . حينما أراهن قادمات، لا أستطيع احتمالهنَّ، بينما حتى لو كنت مع رجل غبي نسبياً وعديم الأهمية، فإني أحاول دائماً مناقشة موضوعٍ من شأنه أن يفيدني بشيء معين . بينما لو كنت مع امرأة لا تهمني، فإني لا أنطق ببنت شفة تقريباً.″

ولأن العلاقات بالرجل تبدو أكثر بساطة من العلاقة بالمرأة :

″يسهل علي التعبير أمام الرجال أكثر مما لو كنت أمام النساء . لطالما وجدت نفسي أكثر ارتياحاً في النقاش مع الرجال.″

وأكثر أهمية في أغلب الأحيان :

″التقيت بعدد أكبر من الرجال المهمين . وكانت لي علاقات أقوى بالرجال من علاقاتي بالنساء.″

.. . إلى حد المطالبة بعد الاكتفاء بأن أكون عضوة في مجموعة النساء، بل بمجموعة الرجال أيضاً :

″إننا نحظى فوراً بمستوى معين بين الرجال . وهناك القليل من التمهيدات، وندخل مباشرة إلى لب الموضوع″ ما الذي يهمك؟″ ″هذا أم ذاك″ وفوراً . لسنا بحاجة إلى حجة، أو ذريعة، فهنا الأمور مباشرة . أعتقد أن جزءاً مني أنثوي، كما يوجد لدي جزء ذكوري أيضاً . إني أقوم بعمل الرجل.″

″أشعر أني مرتاحة لحضور الرجل أكثر بعشر مرات مما أكون بحضرة امرأة . أنا أرتاح معه أكثر، وأشعر بمزيد من الحرية . أعتقد أن لدى النساء موضوعات ممنوعة أكثر مما لدى الرجال.″

المرأة الحديثة تميل إلى قبول القيم الذكورية بوصفها، من الناحية القانونية، مرغوبة أكثر . تعد لغة الرجل، على سبيل المثال، أكثر مباشرة، من دون مواربات، ولهذا فإن لها علاقة أكيدة بفكرة معينة عن الفائدة التي اعتنقتها المرأة الحديثة :

″الكلام الذكوري أكثر اقتصاداً من حيث شكل الجمل نفسها . فهو لا يلجأ إلى الصيغ التي تعبر عن الحذر مثل ″أظن″، ″أعتذر″، وهو ما يضفي القوة على ما يقول . لأنه يعبر عن الأشياء ببساطة، من دون تزويق . لا يعني هذا بالضرورة أنه أكثر ذكاءً، لكنها صيغٌ مُرضية ومقنعة أكثر من حيث قوتها.″

إضافة إلى وصف لغة الرجل بالمفيدة والاقتصادية، فهي أقل استفاضة أيضاً :

″غياب التلوينات لدى النساء يحاط بالثرثرة، وبكثير من الكلمات . أذكر، مثلاً، أني أجريت دراسة حول مُنتج معين وقرأت استبيانات لرجل وامرأة . احتاتت المرأة إلى صفحتين لتقول ما يقوله الرجل؛ أما الرجل فلم يكن بحاجة إلا لنصف صفحة بعد أن فم الشيء نفسه . إنه الحس بالاختصار الذي ربما يكون مهنياً، لكني أظن أن الرجال قادرون على قول الشيء نفسه بكلمات أقل بكثير، ولكن بطريقة موزونة بطبيعة الحال.″

وفي الوقت نفسه أكثر سلامة :

″إنها أكثر سلامة من الجانب الغرامي . أكثر نقاءً . الرجل يتحدث إلى رجل آخر، ويبوح بأسراره إلى رجل آخر إذا ارتأى أن الأشياء التي يبوح بها مفيدة، وليست تافهة، لكن يبدو أن المرأة متسرعة وتبوح بمكنوناتها عن أشياء تافهة بسهولة أكبر .″

## 3 . التقليل من شأن مجوعتها الأصلية

نتيجة لادعاء المرأة الحديثة بالانتماء إلى مجموعة النساء والرجال فإنها تحدث شرخاً جذرياً في مجموعة النساء : فتشكل مجموعتين فرعيتين : مجموعتها الخاصة بها، ومجموعة النساء التقليديات التي تعدها بمثابة مجموعتها الأصلية . ولديها ميل قوي إلى التقليل من شأن هذه المجموعة الثانية، وتتبنى إذلال المرأة التقليدية . وقد يتبدى هذا الاحتقار عبر موقفين، أحدهما يقوم على الرفض، ويصل إلى حد الاحتقار، بل والكراهية، والموقف الآخر ينطوي على عدم الاهتمام، واللامبالاة بكل ما يتعلق بالمرأة التقليدية التي تنظر إليها بوصفها معوّقة عقلياً :

″أصغي . وقد اعتدت السكوت، إذا كنت مع صديقات يتحدثن عن أطفالهن، أو عما يحببنه أو لا يحببنه، وعما يخص حياتهن ( ... ) ويحدث أحياناً، في عملي أن أتحدث مع الناس . فإذا كان حديثي مع النساء، فإن الأمر يرتبط بمستوى من أتحدث إليهن . تأتي السكرتيرات ليرينني صور أولادهن، والمشّايات التي قمن بحياكتهن لطفلهن الأخير، وما إلى ذلك . إنهن يتحدثن عن أشيائهن .

″الحديث مع المرأة، في المجتمع طريقة لملء الفراغ ( ... ) نتحدث عن أشياء وأشياء، عن المطر، والطقس الجيد، والطبخ...″

إما لأنها تسعى للترويح عن نفسها ″كما يفعل الجميع″، فتراها في هذه الحالة، تتحدث عن كل شيء ولا شيء، وإما عن الملابس، لم لا؟ لكنها تسمح لنفسها بهذه الخفة لأنها تعرف بأنها لا تعرف سوى هذا :

″وقد أتحدث عن الملبس . فالثرثرة تعني ممارسة الحياة اليومية.. . لكنها تمثل، بالنسبة لي الاسترخاء . هذا يحدث.″

لكنها قادرة على الثرثرة إذا فرضت الظروف عليها هذا :

"الثرثرة شكل من أشكال الاسترخاء . وهي ممارسة حقيقة الحياة اليومية . إنها شيء نقوم به، لأن الخباز قال لك صباح الخير . لا بد أن يكون المرء لطيفاً . لكن الأمر لا يتعدى هذا، لكن الجميع يقوم بذلك."

"الحديث عن الملبس، يريحني، طبعاً، الحديث عن الملبس مع ابنتي، هذا مصدر متعة لي."

## 4 . المرأة المهنية و/أو الغاوية

لكن، هذا الاندماج بمجموعة الرجال لا يخلو من غموض، ويتسبب بصراعات داخلية بالنسبة للمرأة التي تبنت قيم النجاح . إذ لا يمكن التساؤل عما إذا كان تبني لغة الرجل وفكره يوازي ما يسمى بالمرأة المهنية أو العاملة career woman المُفتقرة إلى الأنوثة تماماً . وأن الأنوثة تعني الاختلاف بالقياس إلى الرجل .

في حقيقة الأمر يمكن أن تعاني المرأة الحديثة صراعاً بالغ القوة بين رغبتها في العمل، ومرورها عبر جميع المواقف والتصرفات "الذكورية" – وتحديداً "غير الأنثوية" – والحفاظ على" أنوثتها" . ويبدو أن الجمع بين حياة العمل وحياة المرأة ليس بالأمر الهيّن . كما يمكننا ملاحظة انشطار بين "مجال عام" تعمل المرأة وتفكر فيه كمنافسٍ للرجل وصنوٍ له، و"مجال خاص" تتفاعل فيه بشكل مختلف . إنها تتحول فيه إلى المرأة التي تصغي :

"إذا كان ثمة موضوع يهم الرجل، سيحظى باهتمامي أيضا . إذاً هو موضوع سأتعلمه . أعرف أنني سأفيد منه شيئاً ما . سيشرح لي ( ... ) لكن إن تطرقت إلى هذا الموضوع مع امرأة، فإني لا أبالي على الإطلاق . فأنا لا أريد أن أعرف من هو فلان، أو علان . هذا لا يهمني، بينما إذا كنت مع رجل، فإني أصغي إليه بانتباه."

وتسعى إلى جذبه وإغرائه :

"لا يمكن أن أنسى بأني أمام رجل، وأني إمرأة . فلدي موقف أسميه موقفاً نسائياً نمطياً، بمعنى أني أبتسم له، وأقول أشياء لطيفة، لأنه رجل، بكل بساطة."

"أحب كثيراً أن أكون بصحبة الرجال، لكن هذا يعتمد على طبيعة الرجل . لا بد من وجود رجال يمكن أن يستجيبوا للإغراء."

وباستخدامها لهذه الوسائل، ترى نفسها وقد تكرَّست أنوثتها :

"ما إن ترى المرأة رجلاً، حتى وإن لم تكن تنوي إغواءه، وإن كانت الغاية أن ينظر إليها، هناك دوماً موقف صغير، شيء ما صغير، حتى وإن لم يكن ملحوظاً . غالباً ما يكون واعياً . لا أرى سوءاً في هذا . إنه أمر طبيعي."

"عموماً للوهلة الأولى، لا أظن أن الرجل سيتحدث إلى المرأة بالطريقة نفسها التي يتحدث بها إلى الرجل مهما كان نوعه . بل تراه بالأحرى، مشدوداً إلى شيء أنثوي فيها . لا أظن أنه يتحدث في اللقاء الأول، اللغة نفسها، لسبب بسيط هو أنه رجل، وهي امرأة."

يمكن أن تمر علاقات المرأة الحديثة بالرجل من خلال الإغراء، أي قد يكون للتفاعل معه إيحاءات جنسية :

"حينما نتحدث مع شخص ينتمي إلى الجنس الآخر، يتخذ الحديث فوراً شكلاً مختلفاً . وفي محادثة مع هذا الشخص من الجنس الآخر لابد أن يشكل هذا دخولاً في عالمٍ آخر، وهنا، يتخذ الحديث منحى أكثر إلزاماً . لا أظن أن بين الرجل والمرأة شيئاً ليس جنسياً . فمن جانب أو آخر هناك ثمة رابط جنسي يقوم بينهما دائماً، وبالنتيجة، فإن العلاقة بالآخر هي شيء مختلف تماماً وأعمق بكثير."

"ربما يكون الرجال أقدر على إخفاء بعض المشاعر، ويظهرون أخرى ربما اعتادوا على التعبير عنها، على الصعيد الجنسي . فأنت تلتقين برجل، حسناً، فإن ما يمكنه يتضح أكثر.. . كيف ينظر إليكِ."

المرأة المهنية career woman، أو الغاوية، تراها تلجأ إلى القليل من المهنية والقليل من الإغواء في الوقت نفسه، الموقفان وجهان لعملة واحدة ومناسبان تماماً للمرأة نفسها . الموقفان يمران عبر رفض المرأة التقليدية، والرغبة في ترك خدر الحريم خلفنا .

## 5 . النساء بين بعضهن

إن موقف النساء هذا من مجموعتهن الفرعية عموماً، والمرأة التقليدية خصوصاً يكوّن وجهتي تصور المرأة الحديثة للثرثرة وينظمهما : الوجه الأول يعبر عن الفهم والابتعاد ـ والثاني عن الاستنكار والاحتقار .

### أ ) من يثرثر؟

تساهم المرأة الحديثة، سواء من خلال عدم اهتمامها أو احتقارها، أم بوضع تصور للثرثرة وربطها ربطاً وثيقاً بالأنوثة التقليدية . ولا شك عندها في أن حديث النساء معها عبارة عن ثرثرة، وأنهن لا يفعلن سوى هذا :

″تشتهر النساء بالثرثرة . حينما تخلو النساء إلى بعضهن تراهن يثرثرن الخ. . . وقد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة إلى جيل معين . حتى بالنسبة إلى جيلنا الحالي، يكون صحيحاً تبعاً للتربية . وهذا يتعلق بالأوساط الاجتماعية على ما أعتقد، إنه مرتبط بالوسط الاجتماعي كثيراً .″

″اجتماع النساء عبارة عن اجتماع دجاجات ينقنقن ( ... ) المرة الأولى التي انتسبت فيها إلى رابطة نسائية، قلت لنفسي من المضحك أن يكون المرء بين النساء .″

يرتبط هذا التصور عن المرأة الثرثارة ارتباطاً وثيقاً بظرف المرأة، وهو ما من شأنه تفسير هذا الأمر لكنه لا يعني المرأة الحديثة على الإطلاق . فقد بذلت جهداً شخصياً لتجاوزه . المقطوف التالي يبين بشكل أفضل تصورها الذي لا يمكنني تفسيره، عن ظروف انتاج نوع خاص بالثرثرة النسائية :

″النساء يتحدثن، أولاً، عن حياتهن الخاصة، لأن مثل هذا الحديث يشكل جزءاً من دورهن . ففي السابق حصرت المرأة في الخِدر، أي اقتصر دورها على الإنجاب، والطعام ورعاية المنزل، والعناية بالغسيل، وأشياء أخرى كثيرة لها علاقة بحياة الناس الحميمة . إذاً، حصرت النساء في هذا القسم . وأعتقد، حينما تتحدث

المرأة عن حياتها الشخصية بنوع من العفوية، إنما تقوم بالدور الذي فُرض عليها .

"إذاً، ما الذي تتضمنه محادثاتهن خلال فترة طويلة؟ حتى زمن متأخر، أي حتى سنوات الخمسينيات أو الستينيات؟ لم يكن يتحدثن كثيراً عن حياتهن الغرامية؛ كان الأمر ممكناً، لكنه لم يكن هو الأساس . أظن أن المحادثات النسائية الخاصة دامت فترة طويلة جداً، وكانت تقوم حول الأمومة، والحياة النسائية عموماً . على سبيل المثال، ثمة موضوع نقلته الصور الكثيرة، والمحرمات، والممنوعات، وما إلى ذلك . وأعني به الحياة الحميمة الخاصة بجسم المرأة، وهي حياة حميمية إشكالية، لأنه طالما مُنعت الفتيات من الاطلاع على ما يختص بجسدهن، لأنه كان ينسب إليه الكثير من المصائب، كالعادة الشهرية عند المرأة على سبيل المثال، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان يمنع عليهن الحديث عنها . فكان لامناص من التفكير الدائم بها، مع أنه لا يجب الحديث عنها . فلماذا تتحدث النساء عنها بين بعضهن البعض، وبصراحة، الأمر ليس غريباً جداً، إنها فرصة لتبادل الحديث عن اهتمام مشترك بينهن .

"هناك أيضاً آلية الجسد نفسه التي تغذي هذه المحادثات، ثم الأمر الكبير، وهو الأمومة، حتى سنوات الستينيات عملياً، كان القليل من النساء اللاتي يخترن عدد ولاداتهن ووقتها بما في ذلك شركاء حياتهن . بالنتيجة، كانت القضية قضية حياة المرأة بأكملها هي التي تدور حول قضية الأمومة . الأمومة المرغوبة التي لا تأتي، لأن هذا موجود أيضاً، وطبعاً هناك الأمومة غير المرغوبة والتي كانت تحدث مع ذلك وبرأيي حتى لو كانت موانع الحمل قد مرت من خلال التحكم بالجسم الذكري، إلا أن أمور الإجهاض خصوصاً كانت تنتقل عبر النساء بنحو خاص . ولهذا سببه، فثمة منظومة من النصائح، والطرائق، وما إلى هذا، والمتخصصين بالإجهاض كانوا من النساء . وأمر واقع هو عدم اهتمام الأب المستقبلي للطفل بالموضوع، وكان معروفاً أن الاجهاض هو من شأن المرأة، ومن ثم، فإن هذا كان يفترض سلسلة من الإجراءات، ومنظومة، وشبكة غير معلنة، بطبيعة الأمور، كانت تمر عبر ثرثرة النساء."

## ما موضوع هذه الثرثرة؟

كثير من الأسباب التي تفسر لنا الطبيعة السرية لهذه المحادثات الخاصة، حيث يدور كلام المرأة حول أشياء حميمة تتعلق بحياتها الشخصية، وكذلك بحياة الأشخاص الآخرين، ولا سيما النساء الأخريات . لكن كيف وبمَ يتميز التواصل بين النساء كما تراه المرأة الحديثة؟ بشكل عام، ترى أن هذه الثرثرة مرتبطة بموضوعات المحادثة التي تتطرق إليها النساء، موضوعات تتعلق تارة بشخصهنَّ :

"بالنسبة إلي، فإني أتسلى كثيراً في المقاهي، والإصغاء إلى كلام النساء . إنه أمر مُسلٍ، لأنهن يتحدثن عموماً، عن أنفسهنَّ، وعن مشاكلهن، وعمرهن؛ ويبدو أن قضية الحديث عن العمر أمر بالغ الأهمية . إنجاب الأطفال قضية نسائية بالفعل . حينما يتكلمن يُشعرننا بأنهن يتكلمن عن تكيفهنَّ مع الرجل . وتبدو حياتهن مرتبطة بما سيفعله الرجال."

وطوراً بمحيطهنَّ :

"بشكل عام، حينما تتزوج النساء، تحتل حياتهن العائلية، وبشكل خاص حياة الأطفال، حيزاً كبيراً في هذا النوع من المناقشات . إذاً، هناك كثير من الأحاديث المبتذلة حول طريقة تربية الأطفال، إذ تشغل دراستهم جزءاً كبيراً من هذا النوع من المحادثات، إضافةً إلى نتائجهم المدرسية، وشخصية أساتذتهم، وأمراضهم."

"ليست ثمة مشكلة بالنسبة إلى النساء غير العاملات، فهن لا يتحدثن عن شيء آخر سوى بيتهن، ونادراً جداً ما يتطرقن إلى موضوعات مهمة أخرى . والنساء العاملات لسن بالضرورة أكثر انفتاحاً، لكن يمكن التكلم معهن حول ما يقمن به، ولديهن اهتمام بما يفعلن؛ ولسن أكثر انفتاحاً من الناحية الثقافية، ليس هذا صحيحاً تماماً."

وأن النساء الحديثات لا يجدن هذه الموضوعات مهمة :

"الثرثرة تدور حول موضوعات للمحادثة، وعما لدينا لنقوله . نادراً ما يكون لدى النساء موضوعات للمحادثة من شأنها أن تكون مهمة، اللهم إلا إذا كن بصحبة الرجال . لكن هذا رهن بالمستوى الفكري، والمستوى الثقافي، لكنهن في غالب الأحيان يروين لك الشيء نفسه : الخياطة، ووجبة الطعام، وهكذا . النساء يتحدثن عن أسعار الخبز، وثمن الحليب . أظن أن الأمور تتوقف عند هذا الحد . الرجال

يسعون إلى تكوين رؤية عامة حول هذه الموضوعات . بعض النساء الذكيات والمثقفات اللاتي عرفتهن يتحدثن عن أشياء مهمة حينما يكن بصحبة الرجال، وحينما لا يكن بصحبتهم يعدن للحديث عن أشياء غير مهمة كالرضاعة، وما إلى ذلك .″

## ب ) كيف؟

### - نبرة المُسارَّة

الموضوعات الحميمة التي تتطرق إليها المرأة تضفي على هذه المحادثات طابع المسارة الذي يثير سخط المرأة الحديثة . لأن هذه المرأة الحديثة تنظر بعدم الرضا إلى المرأة التي تبوح بما عندها بسرعة كبيرة :

″أعتقد أن ثمة اختلافاً كبيراً بين علاقات الصداقة القائمة بين رجلين وتلك القائمة بين نساء عدة بعضهن مع بعض . النساء يملن بسرعة إلى الحديث عن موضوعات حميمية أكثر من الرجال . وقد يذهب بهن الحديث بعيداً في هذا المجال، لكن الأمر رهن بكثير من الناس بكل تأكيد . بعض النسوة يتميزن بدقتهن الكبيرة في رواية حياتهن الخاصة، أو حياتهن الزوجية، أو العاطفية، أو الغرامية، أي كل ما له علاقة بالحياة الحميمة، وأنا على يقين بأن الرجال لا يتحدثون أبداً بهذه الطريقة .″

### - نميمة الثرثارة

. . . التي، برأي المرأة الحديثة، سرعان ما تنزلق نحو النميمة :

″ثمة نوع آخر من الثرثرة التي تبدو لي خاصة بالنساء، أي ذمّ النساء الأخريات . هناك ميزة دنيئة عند النساء حينما يختلي بعضهنَّ ببعض وهي اهتمامهن بالأمور الصغيرة، بسب التقاليد أو الظرف الاجتماعي، وهذه هي الدناءة والمكر المجاني، أضف إلى ذلك الحاجة إلى الثرثرة، وعدم قدرتهن على كتمان السر، وهذا التضامن النسائي يجعلني أعتقد أن النساء أكثر ثرثرة من الرجال .″

″إنهن ينتقدن بعضهن بعضاً كثيراً . اذا اجتمعت ثلاث أو أربع نساء معاً، سرعان ما يتناولن امرأة أخرى بالحديث، وهو شيء لا يلجأ الرجال إليه إلا نادراً . ويذهب بهن الحديث إلى حد القول : ″هل رأيت كم هي ماكرة″ أو ″رهيبة″ أو ″أوه ـ مسكينة هذه المرأة″ . الحقيقة، ما يقلنه عنها ليس سوى إسقاط لرؤيتهن الخاصة بهن حول الحياة.″

إنها نميمة مشوبة بالغيرة :

″ليس ثمة ما هو أسوأ من اجتماع النساء بعضهن مع بعض . على هذا الصعيد أظن أن هناك شكلاً من أشكال الغيرة . فحينما تبدأ الثرثرة فهي غالباً ما تتناول أشياء سيئة وتتهم النساء بعضهن بعضاً . إنهن أكثر انتقاداً من رجلين حينما يجتمعان . ما أقدره لدى الغالبية العظمى من الرجال هو أنهم حينما يرغبون في قول شيء معين فإنهم يقولونه . وهو أمر غير موجود لدى النساء . تذكرني المرأة دائماً بالقط، وأنا أرهب القطط . لأنك لا تعرف ما الذي سيحدث لك معها .

الحقيقة، يبدو أن جو السرية هذا الذي يحيط بهذه ″البضاعة المتجولة من أشياء حميمة″، من شأنه تشجيع النساء على الثرثرة :

″فكرت في اللوم الذي غالباً ما يوجه إلى النساء، وما يزال يوجه إليهن : بأنهن ثرثارات، بمعنى أنهن يروين قصصاً تتعلق بالحياة العامة، أو غير العامة لهذا الشخص أو ذاك ( ... ) لذلك تراهن يتخذن نبرة المناجاة، ونبرة الاحتياطات الخطابية لصناعة هذه المسرودات، مثل قولهن : ″بيننا″، ″لا تقولي لأحد″، ″نعم، سأقول لك شيئاً″ ″لكننا لا نعرف كل شيء، وهنا أيضاً ثمة صيغ تستخدمها النساء في محادثاتهن أكثر من الرجال ( ... ) وهذا ما تعنيه كلمة cancanière ( مُبَطبطة=ثرثارة مثل البط ) ، كما يطلق على الثرثرة أيضاً اسم papotage [البعبعة] . لماذا نسمي رواية أحداث أو قصص صغيرة حدثت مع هذا أو ذاك قصصاً صغيرة؟ لأنها عموماً لا تتعلق بالحياة العامة للناس، بل بحياتهم الشخصية . هذه الطريقة في المناجاة تستخدم في كل مرة نبدأ فيها بشيء خاص بالحياة الخاصة . باعتبار أن الطابع الخاص يمكن أن يطال الحياة الأكثر حميمية . هذا كل ما في الأمر.″

## - الاسهال الكلامي

لكن، ليس موضوع ″الحديث عن الذات والآخرين بطريقة المناجاة″ هو الموضوع الوحيد الذي يتم التطرق إليه . إذ ينظر إلى الثرثرة بوصفها إسهالاً كلامياً عند النساء اللواتي لا يتوقفن عن الكلام :

″النساء يتكلمن كثيراً . كيف يمكن لبعض النساء أن يتكلمن، أو يتلفظن بحماقات مثل : ″أوه، كم أنت جميلة!″، يبدو لي أن هذا خصوصية نسائية.″

″يا إلهي، ما أكثر ثرثرة الفتيات . حينما يمر الأولاد والبنات في باحة المدرسة، ترى الأولاد يربتون فوق أكتاف بعضهم، أو يلعبون بالقُلل . أما الفتيات فيجلسن ويغرقن في الثرثرة . الاختلاف شاسع، الفتاة تبطبط، وتبطبط من دون أن تسكت ولو لثانية، بينما ينشغل الأولاد بالنظر إلى سيارة عابرة، أو يرفسون إحدى الأشجار بأقدامهم.″

ويغرقنَ بنية كاملة في حشد من التفاصيل :

″المرأة تروي لك قصة : خلال اثنتي عشرة دقيقة تكون قد روت أشياء كثيرة، فلا تستطيع طرح الأسئلة، لأن النقاط الهامة التي تريد أن تسأل عنها تكون قد مرت . أما الرجل فيروي لك قصته بثلاث دقائق، ويركز على النقاط المهمة، ويمكنك أن تطرح أسئلة مفصلة تهمك شخصياً.″

## - مساهمة الجسد

ليست المساهمة مقصورة على الكلام فحسب بل بالجسد كله . في الحقيقة، ترى المرأة الحديثة أن التواصل بين النساء أكثر تعبيرية، لأن رسالتها تترافق بمجموعة واسعة من الوسائل التعبيرية اللغوية وغير اللغوية :

″ تكثر التلميحات في الوسائل التعبيرية التي تستخدمها النساء . ثمة وسيلة، على سبيل المثال، هي نبرة الصوت التي يجب قرنها بتدفق الكلام . قد يكون التدفق سريعاً، أو بطيئاً، وقد تحدث وقفات لها دلالة، وصمت ينم عن التعجب، أو

الغموض، أي المضمرات . إذاً، هناك النبرة والتدفق، وأعتقد أن النساء يستخدمن مجموعة أوسع من التنوعات اللهجية أكثر من الرجال :

"الوسيلة التعبيرية الثانية هي الحركة والإيماء . الإيماء، نعم.. . أعني تعابير الوجه بشكل أساسي، وهو ما يدهشني كثيراً حينما أرى نساء يتحدثن في الشارع، ولا أسمعهن، ولا أفهم ما يقلنه . مثلاً، ترى ربتي منزل تتوقفان، وتتبادلان الكلام . حسناً، طالما لاحظتُ ذلك . وغالباً ما لاحظتُ – وأنا لا أسمع ما يدور بينهما من كلام، وأكتفي بمراقبة الإيماءات – أنه يكفيني ملاحظة النبرة التي تستخدمانها تقريباً لكي أعرف ما الذي يدور بينهما . دور الإيماء هنا هو تعزيز هذه التلوينات، أو التنويعات التي تحدثت عنها قبل قليل .

"الوسيلة التعبيرية الثالثة التي تستخدمها النساء، هي حركة الجسم . ففي حركة الجسم، على سبيل المثال، يعبر تقديم الجزء الأعلى من الجسم عن شيء معين، أما إذا ارتد إلى الوراء فيعبر عن التعجب . وهناك حركات الذراعين، واليدين، وأظن أن هز الأكتاف أكثر شيوعاً لدى النساء . إن جسدهن يقوم بلعبةٍ محددة .

لكنها لعبة مبتذلة :

"كل ما يقال يومياً مبتذل، لأننا نعيشه كل يوم."

– لافتقاره إلى الطبيعية

الحقيقة أن هذه القدرة التعبيرية الكبيرة بين المرأة والمرأة، وتلاوينها، والأبعد ما تكون عن أن هزّ صورتها في نظر المرأة الحديثة، تعبر عن امرأة محدودة الأفق، وسطحية، ومتلقية سلبية لدورها المفروض عليها :

"الحقيقة، ما يحدث هو أنخلق لغتها بلعبة تمارسها، وتتحملها ( ... ) تقوم النساء بحركات صغيرة برؤوسهنَّ . حركات صغيرة، نعم، هي ما أسميه بالحركية المسرحية، إذا شئتِ، وهي جزء من الأدوار التي نتعلمها، وربما حركات يدوية، والطريقة التي تستخدم بها النساء أيديهن عموماً، هو ما يسميه الرجال حركات أنثوية . المرأة تهتم بيديها، وتعتني بهما، وتصبغهما، أكثر من الرجل . لو أجريتِ مقارنة، لوجدت مقدار سطحية هذا الأمر."

لكن الآخرين يشعرون بأنها تفتقر إلى الظرافة :

″المرأة ليست شيئاً مفرحاً . إنها تترك لديك دائماً الإحساس بالضغينة . إنهن يحكين لك كل الهموم التي يسببها الزوج لهن.″

″لا أظن أن النساء يجدن المتعة بينهن كما يجدها الرجل بين أصحابه، وأؤمن بهذا . لأننا نجده في لغتهن . ربما يكون للرجال لغتهم في ما بينهم، كالمزاح، والموضوعات التي تفتقر إليها النساء.″

## ت ) ولماذا؟

تنظر المرأة الحديثة إلى الثرثرة بوصفها لغة غزيرة – كلاماً وحركاتٍ – هدفها استعراض نفسها ونقل أشياء حميمية من ذاتها والآخرين، غالباً ما تكون بطريقة المناجاة ممزوجة بانزياحات نحو النميمة . لكن، لماذا يسهل كلام النساء مع نساء أخريات؟ ما هي الأسباب التي تدفعهن إلى البحث عن صحبة النساء دون الرجال؟ الحقيقة أن المرأة الحديثة ترى أن التضامن بين النساء يأ نتيجة اختيار مقصود، لكنه أشبه بثرثرة حول مصير نساء لا يجدن سوى نساء أخريات من شأنهن الاهتمام بقصصهنَّ :

″إنهن يتكلمن ليروحنَ عن أنفسهن حينما يختلي بعضهن ببعض، لعدم قدرتهن على القيام بهذا مع رجال آخرين . فإن ثرثرن مع بعضهنَّ، فذلك لأنهن بحاجة إلى هذا لأنهن لا يستطعن القيام بذلك مع الرجال الذين يعشن معهم، لأن الأمر لا يعنيهم . لا أظن أن الرجل الذي يحترم نفسه يهتم بالحديث عن الملبس، أو الأطفال أو مرض الجدري؛ الأمر غير مهم بالنسبة له ( ... ) أتفق على أن الأمر يهم المرأة أكثر من الرجل . لكنني لا أوافق كثيراً على القول بأن الرجل يثرثر . أتفق على أن المرأة ثرثارة لأنها أقل اعتياداً على الحياة التي يعيشها الرجل.″

″المرأة أكثر انفتاحاً على تفاهات الآخرين . وهي تروي التفاهات لكي تسمع تفاهة الأخريات، وأحياناً، لكي يعزين أنفسهنَّ بقولهن : حسناً، لستُ أسوأ من الأُخريات!″″

يُنظر إلى ثرثرة النساء بوصفها طريقة لتعزية النفس، والشعور بالأمان؛ طريقة من يقول لنفسه أن هناك ثمة من هو أصغر منه، لكنها تبدو أيضاً بوصفها طريقة لملء الوقت، إذ من المعروف عن المرأة التقليدية أنها تعاني الضجر :

″يثرثرن لأنهن يعانين الضجر″

″أظن أن سبب الثرثرة يعود إلى نقص في النشاط، حتى لو زعمت النساء بأن لديهن الكثير منه، أظن أنهن يهدرن وقتاً في الثرثرة أكثر مما يقضينه في القيام بواجباتهن . طبعاً، أنا أتحدث عن نساء لا يعانين من القيود المهنية . المرأة التي تفتقر إلى النشاط تضجر . الثرثرة لا تعطيهن شيئاً، إنها مجرد تزجية للوقت، لأنهن يفتقرن إلى الأفكار .″

″يلتقين في أحد المقاهي، إذا شئتِ، لأنهن يرغبن في رؤية بعضهن البعض، لأن الضجر يقتلهن .″

لا يفترض بالمرأة التقليدية أن تضجر فحسب، لأنها وحيدة . وبما أن أحداً لا يستمع إليها، اللهم إلا إذا كانت امرأة أخرى تعاني الضجر مثلها، ولديها من الوقت ما تهدره، فتتقارب المرأتان لمواجهة وحدتهنَّ :

″ربما لدى ربات البيوت ميلٌ إلى أن يكن أكثر ثرثرةً من غيرهن، لأنهن معزولات تماماً . بطبيعة الحال، النساء ثرثارات جداً، فما أن تلتقي إحداهن حتى تروي لك قصة حياتها، وتقول إنها تعيش في وسطٍ لا يتكلم الناس فيه كثيراً . هؤلاء النسوة، أي ربات البيوت، يعشن حياة عزلة رهيبة خلال النهار . وحينما يرين أحداً يستمع إليهن، تراهن يسعدن، ويبحن بما لديهنَّ .″

″حينما ترى تلك النسوة مجتمعات، لا يتولد عندك الانطباع بأن هذا الاجتماع عفوي، وطبيعي، وتظن أنه نوع من الروتين، لأنهن لا يردن البقاء وحيدات ويفكرن بأشيائهن الصغيرة . فلديهن متسع من الوقت للقيام بها .″

تتصل المرأة بنساء أخريات وتبحث عما بينهن من أشياء مشتركة . ترى المرأة الحديثة في هذا التواصل بين النساء التقليديات نوعاً من الاحتكاك المادي والنفسي بين من يتكلمن، وبين من يصغين، كبديل عن المناقشة الحقيقية، أو كبداية للتواصل :

″أظن أن للأمر علاقة بإحدى الوظائف الأولى للكلام، التي تقوم على التبادل والتواصل . حتى لو لم يتم هذا التواصل على مستوى المعنى نفسه، وحتى لو تكلم كل واحد لنفسه، كما هو حال أغلب الناس الذين يتبادلون الكلام في ما بينهم، لكنه يكون قد تكلم، على الأقل.″

في الوقت نفسه تراها تتلقى هذه الثرثرة بوصفها طريقة لإحياء معيشٍ فقير ويخلو من أي أهمية – أي المرأة التقليدية :

″يبدو لي أن النساء يقمن بدور أهمّ، كنوع من التعويض الذي يتكون لدى المرأة على صعيد المسرود، تعويض عن نقص في الحياة العملية . بعبارة أخرى، كلما قل تأثير المرأة ازداد حكيها ( حينما تبدأ النساء بالبطبطة، ويروي بعضهن لبعض القصص، فهن يخترن مسرودات معيشة عموماَ.، أي ما يهمهنَّ، هو المعيش والمعيش.. . لكن الأمور تجري كما لو أن هذا المعيش لم يكن كافياً في حد ذاته، بل عليه، لكي يكون موجوداً، أن يمر عبر المسرود . ينبغي على المرأة سرد ما حدث معها، وعليها أن تروي ما عاشته.″

التناقض الذي نلاحظه بين تصور المرأة الحديثة عن المرأة التقليدية، وتصور المرأة التقليدية عن نفسها، هو تناقض مدهش . النسختان المعبرتان عن الواقع نفسه لا يتقاطعان على الإطلاق . المرأة الحديثة، والمحظوظة، منزعجة من المرأة التقليدية . وقد رأينا أن هذه المرأة التقليدية لا تستطيع مواجهة التحدي . إذ هناك نساء أخريات يقمن بذلك بدلاً عنها .

# الفصل السادس
# حلول جماعية
# المرأة الجديدة
# الحل ( ب )

## 1 . القطيعة الثانية وعي التشابه

الوعي الأول للدور التقليدي أو القطيعة معه مر من خلال التشبه بالنموذج الذكوري . فقد سعت المرأة الجديدة خلال طفولتها، أو خلال سن البلوغ – كما فعلت المرأة الحديثة – إلى التشبه بالرجل، لكنها تنبهت إلى استحالة تحقيق هذا الأمر . فراحت تتميز عن هذا "النموذج الذكوري" الذي لم يكن يشبهها، فتحمست لإبراز أنوثتها، والتشبه بالنساء الأخريات . وعرفت المرأة الجديدة بوجود"حركة تحرير النساء" والمجموعات النسائية بوصفها المكان الذي تحقق أنوثتها من خلاله، وكذلك وعيها لمكانتها بوصفها أقلويّة minoritaire :

"آلمني كثيراً، في فترة مراهقتي، أن ينظر إلي بوصفي أقل قيمة من الرجل، وأن أُعدُّ موضوعاً جنسياً له . أنت تشعرين هنا، بوصفك امرأة، أنك تتمتعين بمكانة لا تُعجبك، وتشكل بداية وعي أنثوي . ثم ذات يوم، تجدين فتيات يأتين لقرع باب بيتك وبأيديهن صحيفة Torchon brûlé، ويخبرنك أنهن ينتسبن إلى حركة تحرير المرأة MLF."

"إن من اضطهدنا هي سلطة الرجال على جميع المستويات، سواء من ناحية القانون، أو من حيث الطب، ولئن شعرت النساء ممن هنَّ في عمري بذلك، فإن لهذا سبباً، لا أدري، إن شاركت في مظاهرة النساء في المرة الأخيرة حيث رفعن شعار "لا للقضاة!، لا لنقابة الأطباء!"، وهكذا، إنه لشيء رهيب بالنسبة إلى النساء، لأننا تألمنا منه . ليس من الناحية الفكرية وحسب، بل من الناحية الجسدية

أيضاً . لقد وضعت الأولاد في هذا العالم، أنجبت الأولاد، كنت امرأة، رأيت الأطباء المتخصصين بالأمراض النسائية، ورأيت السلطة التي يمارسونها، وطريقة ممارستهم لها . إنهم لم يتخيلوا أنفسهم في مكان المرأة، أو سألوا أنفسهم إن كانوا ينجبون الأطفال.. . ولو كنا نلد الأطفال لكنا غيرنا بعض الأشياء . هل تفهمين ما أقول؟″

ينجم عن هذه اللقاءات مع نساء أخريات وعي جماعي : أي وعي تكوين جماعة قادرة على التصرف . وقد جعلتها مجموعات النساء، في الوقت نفسه، تعترف بالمقتضيات الاجتماعية لتبعيتها، وضرورة حل مشاكلها على صعيد جماعي . ولم يعد ممكناً لها التعامل معها بشكل فردي :

″لدينا جميعاً الحافز نفسه، هو أننا جميعاً نعي أن هناك في مكان ما لا تسير الأمور جيداَ، وأن المكانة التي مُنحنا إياها.. . هنا، هذا الوعي الذي بدأ بالنسبة إلى بعضهن منذ الطفولة، ومع أخريات منذ سن المراهقة، هذا الوعي الذي منحنا إياه لا يرتبط بنا، وكنا نشعر أن شخصيتنا مغتصبة . كان هذا هو الأساس.″

″حينما يدور نقاش بيني وبين بعض الفتيات، ندرك أن المعاناة هي نفسها، ومن النوع نفسه، ومن الجنس نفسه . وأظن أنه من خلال هذا الشيء المشترك فإنك تشعر بسرعة كبيرة، من خلال الكلمات، والأفعال، والاهتمام بهذا الشيء أو ذاك، أظن أن الأمر هكذا، أي أني هكذا أفهم التشابه والاختلاف.″

شكلت الجماعات فرصة للمرأة لكي تحدد نفسها بفعالية . وسمحت لها بوعي ما تسميةِ هويتها، وتشابهها مع النساء الأخريات . إنها تشعر بأنها امرأة :

″الأمر الأساسي الذي أدركته، هو وجود هوية للمرأة . شعرتُ بهويتهن، كما شعرت بهويتي، وهو ما لم يكن موجوداً في السابق بالنسبة إلي.″

″إنه شكل من أشكال القبول أيضاً، وتقاسم الإيمان نفسه، أعني الإيمان بالمرأة، ووعي حقيقة أننا نعيش الحالة نفسها، ونعرف إلى أين نتجه؛ نعرف أننا نتجه نحو شيء بذوره موجودة فينا، وهي بذور مشتركة، وهذا الشيء المشترك هو الذي يجمعنا.″

″ الإحساس بعدم كوني وحيدة، وأن ثمة الكثير من الناس مثلي، وأنك تنتمي إلى شيء معين، إلى ثقافة معينة، هذا أمر بالغ الأهمية .″

بدأت المرأة، مع نساء أُخريات، استشعار القوة . ولم تمنحها الجماعات، وعمل الجماعات على تحقيق الأنوثة الجديدة فحسب، بل منحتهنَّ، في الوقت نفسه، الإحساس بأنها ليست امرأة تقليدية أو امرأة حديثة . لقد شَعَرَت بالمجموعات بوصفها وسيلة للتخلص من كل ما عانت منه في السابق . شكَّلت الروح النضالية ضمن الجماعة، وما تزال تشكل، بالنسبة إليها، عملية تحرر شخصي :

″ عشت روح التضامن التي كانت تتطور ضمن هذه المجموعات . والثراء الذي صرت أشعر به، بل أكثر من هذا، فلقد حققت التوازن . هنا في هذه المجموعات، تشعر المرأة بالتحرر . تجد جميع الناس الذين يؤلفون المجتمع محبطين، أنا وغيري نجد أنفسنا متحررات من تلك الإحباطات، وتحقق المرأة توازناً أفضل .″

بعضهنَّ عشن هذه التجربة، وما زلن يعشنها بوصفها ″خلاصاً من التحكم″ :

″لكن، هذا الأمر، بالنسبة إلي، بمثابة خلاص من أي تحكم . من تحكم الخطاب، والكلمات، ومما نعيشه، وما نتشربه خلال العمل، ويجعلنا نعيش حياتنا، ونتخلص من الآلام الغرامية، وما إلى ذلك . إنه فعلاً خلاص من التحكم، ويجعلني أفكر في هذا الأمر، لكوني لم أعد أتماهى مع ما عشته، وعثرت على فضاء في داخلي، أذهب إليه . . . أي ما يمكن أن نسميَّه الأن، القدرة على التنفس .″

لم تعد الأمور كما كانت عليه في السابق . إذ يعد اكتشاف المرأة الجديدة للأنوثة، لحظة تفصل حياتها عما كان قبل :

″في السابق، كان خطابي مع النساء الأخريات عبارة عن تفاهات، وسخافات، وذا طبيعة عائلية، في بعض الأحيان طبعاً . . . لكني لم أكن اواجه النساء إلا بوصفهن نساء . ولم أكن أهتم لأمرهن كثيراً . . .″

″قبل انتسابي إلى الحركة، كنت ممتلئة بكل النماذج التقليدية، أي أنظر إلى نفسي بوصفي حمقاء مسكينة صغيرة، ولم أكن أجرؤ على الكلام أبداً، وأنني، أنا، لم أكن شيئاً .″

و بعد :

″الآن، تلك النسوة أصبحن واعيات لهويتهن، لأنفسهن . صرن قادرات على التخلي عن قيود المجتمع جميعها.. . بينما كان بحث الموضوعات التي نتطرق إليها اليوم أمراً مستحيلاً.″

″في معرض النساء، كانت البداية . بالنسبة إلينا، نحن اللواتي نظمن هذا المعرض، برز شيء منحني قوة الاستمرار . بعض النساء وجدن توجهاً معيناً قياساً إلى أنفسهن.″

يتسم هذا الـ″بعد″ بحساسية كبيرة، وبمزيد من الإصغاء إلى ما يقوله جسدنا :

″لقد طورتُ حاسة السمع لدي . تنبهتُ إلى أنني كنت أملك ذاكرة بصرية بالغة القوة، وأني، في أغلب الأحيان، عاجزة عن حفظ ما يقال لي، أو ما كنت أقول . كانت أذني صماء في مكان ما . أما الآن، صرت أدركُ أن لدي أذناً فعلاً بالغة الحساسية، وقادرة على الحفظ ( ... ) بدأت فعلاً، في معرفة نفسي، ومعرفة ما أعيشه . وتعلمت ألا أعيش كالآلة، وهذا هو الأساس.″

أصبحت المرأة الجديدة تتقبل نفسها، وتشق بذلك لنفسها طريقاً نحو إمكانيات جديدة :

″سبب وجودي هو الحركة النسوية، فأنا أعيش من خلالها، في نهاية المطاف . انطلاقاً من اللحظة التي فكرت فيها، حيث اكتشفت، في النهاية، كل ما كنت أشعر به، لكن من دون أن أتمكن من التعبير عنه . إنها عملية إعادة تعلُّم . نشعر بطريقة مختلفة، ونرى بطريقة مختلفة، ونبدأ في تقبل أنفسنا شيئاً فشيئاً . كان الدرب بالنسبة إلي طويلاً، استغرق مني سنوات . أشعر بأني أتطور، ولن أتوقف عند هذا الحد.″

ولدى الاحتكاك بالنساء الأُخريات :

″صرت الآن أكثر حساسية، وأكثر اهتماماً بفضل حركة النساء؛ الآن، إذا كنت جالسة إلى جانب امرأة في الستين أو السبعين من عمرها، أكون بالغة السعادة، وأبدأ نقاشي معها بسؤالي لها عن أحوالها.. . عن قصة حياتها، وآرائها في النساء، وهو أمر ممتع دائماً . في السابق، كان يمكن أن أقول ″ما الذي يمكن

قوله لهذه المرأة، ليس عندي ما أقوله لها." لكن الحركة النسائية فتحت وعيي : في الحقيقة بيني وبين كل امرأة امر مشترك، فأنا امرأة، ويمكنني أن أتعلم."

لا شك أن الجماعات النسائية لم تكن مجرد مكان يستيقظ فيه الوعي، بل مكان للوقوف على ممارسات جديدة . تعد ممارسة حياة الجماعة، واللقاء بنساء أخريات يتقاسمن الاهتمامات نفسها، وجوهاً أساسية في تكوين المرأة الجديدة : إنها الإمكانية الحقيقية لاكتشاف وإيجاد وممارسة علاقات بيْنفَردية جديدة في كنف الجماعة . غياب السلطة والهرمية والقادة يؤثر في علاقة المرأة الجديدة بالنساء الأخريات :

"تقوم المناقشات وفقق إيقاع معين، وهو أمر رائع . بعض النسوة سألنني بعد حضوري إحدى الأمسيات : " الغريب أنه لا يوجد أي قائد، وليس ثمة شخص يدير المناقشة." خيّمَ على هذه المناقشات إيقاع رائع، وشاركت فيها كثير من النساء، وكان عدد النساء اللاتي لم يتكلمن قليل . كانت الأحاديث منسابة."

"في الأساس، كان هناك شيء مشترك، يجمع الإمكانيات التي نملكها، هي وأنا، والأخرى وأنا؛ لم تكن هناك نماذج.، ولا أدوار توقفنا . قد يكون هناك شيء آخر، في مكانٍ ما، ورابط خفي يجمعنا."

ونشأت، من خلال هذه العلاقات، أشكال جديدة من الاستماع والفهم :

"على صعيد الانتباه، على صعيد الاستماع، إذا كانت إحدى الفتيات تصغي إلى الأخرى، وإذا شعرت باهتمام معين، وتقبل ما من تلك الفتاة، يكون الأمر آلياً أسهل بالنسبة إليكِ . ثم هناك هذا النوع من الأشياء الذي يجعلك ربما تلتقطين الاختلافات في الموقف."

ثم نشأت أشكال جديدة من الصداقة :

"في البداية، نكون كما لو كنا متواطئات، وهو ما تشعر به جميع الفتيات . فنحن نعرف بعضنا قليلاً، منذ البداية، ومنذ اللقاء الأول نتعامل بنوع من الليونة، وبنوع من الصداقة."

نمت ضمن المجموعات، وتنمو مشاعر قبول متبادلة بالغة القوة :

″حينما أتحدث مع إحدى النسويات، أشعر بأني مقبولة منها . أشعر بالارتياح .″

″ما أحس به وأنا مع صاحباتي هو شيء أكثر اكتمالاً . يرينني، ويلاحظنني بكليتّي، أما إذا كنت مع أخريات، أو بصحبة رجال، هناك شيء ما لا أعرف ما هو، بمثابة جزء مني . عندها، أشعر أنه في الميادين الاجتماعية الأخرى، يمكن . . .، أن يُعترفَ بجزء منا، لكن ليس بالشخص كله، ( . . . ) وقد حصل معي هذا في أغلب الأحيان، أي أحسست بأني مقطَّعة، هكذا، لكن شعوري به يكون أقل حينما أكون مع النساء .″

إن القدرة على تصور أشكالٍ جديدة من العلاقات التي تقيمها المرأة الجديدة مع الرجال والنساء غير النسويين، انطلاقاً من ممارسة العلاقات المختلفة والجديدة مع نساء أخريات، حتى إمكانية فرضها على جميع من يحتكون بها، يُشعرها كأنه بمثابة فعل سياسي :

″في موضع آخر، أي في الحياة اليومية، وفي العائلة، والعمل، أرى عالم النفاق، والأسس التي يقوم عليها مجتمعنا، أراه وضعاً غير طبيعي، لذلك أرى في ذلك الخطاب موقفاً سياسياً بالتحديد، لأنه موقف من شأنه تغيير الحياة، إذ لم يعد ممكناً أن نقبل أشياء أخرى، بعد أن نعتمد هذا الخطاب .″

## 2 . الإحالة إلى الرجل الغائب

تُعدُّ ديناميكية الأنوثة الجديدة الناشئة ضمن مجموعة معينة من النساء، بنظر المرأة الجديدة مختلفة تماماً عما عرفته في السابق . فتشعر بها بوصفها نقيضة عالم خارجي تشكل على صورة الرجل . لهذا ينشأ صراع أبدي بين الصورة التي تكونها المرأة الجديدة عن صورة الأنوثة وصورة الذكورة التي يدافع الرجل عنها، والأنوثة كما تعيشها المرأة الجديدة في الواقع . تتكوّن العلاقات التي تقيمها مع نساء أُخريات بالإحالة إلى هذا الصراع، في أغلب الأحيان . وهو صراع يحدد كل ما لا تريده المرأة :

″شاد الرجال نوعاً من المجتمع الذكوري، وكونوا لغة تشبه ما بنوه، . لكن، في مكان ما، تم استبعادنا تماماً من هذا العالم. ( . . . ) ما يمكنني الشعور به

على صعيد التواصل الذي يمكن أن أقيمه مع إحدى النساء، يكون أعمق بكثير، كما أعتقد، وأحس بأني قادرة على التقدم إلى الأمام بعيداً، بل وبعيداً جداً . بينما حينما أكون مع الرجل، أجد في مكان ما شيئاً يتوقف . ثمة عائق معين، لا يمكن تجاوزه . إنه، في الحقيقة، عائق الاختلاف . إنه جانب آخر.″

ولا رغبة لدى المرأة الجديدة في الوجود قياساً بالرجل أو من خلاله :

″غالباً ما يُنظر إلى الأشياء النسوية من خلال اللغة نظرة سلبية . يحكم عليها دائماً بحسب النماذج نفسها، أي المرأة التي تمثل العاطفة، والحدس والجمال . هذه الكلمات كلها ذات طابع أنثوي عموماَ، إما لتملق المرأة أو رفضها.″

وتأخذ عليه أنانيته :

″يطلبون منكِ أن تفعلي ما يريدونه، وأن تكوني نوعاً من الرجل الفاشل manqué، أي رجلاً ثانوياً.″

″طالما أرهقت الحياة النساء، ثم أتى الرجال لينهكوهنَّ، ويسعون إلى الأخذ منها دائماً . هنا لا تمييز بين أولئك وتلك . أرى أن الرجال يأخذون أشياء من النساء . وغالباً ما تقوم النساء بالعطاء.″

″كنا في أحد الاجتماعات، نقول إنه حينما يجتمع رجل وامرأة، فإن الرجل يمتص طاقة المرأة، هل ترين؟.″

## 3 . التنافر بين العالم الذكوري والمرأة الجديدة

في الوقت الذي يمكن للمرأة الحديثة تحديد أنوثتها في عالم ذكوري من دون مشاكل، يصبح أي تفسير للأنوثة الجديدة مستحيلاً . صار وجود المرأة الجديد يتحدد من الآن فصاعداً إزاء النساء وبالنسبة إليهن فقط . إنها ترفض كل ما يمثله الرجل، الذي يشبهها، والمكان الذي يظهر فيه ويتجلى . إضافة إلى أنها ترثي لحال المرأة التي تريد التشبه بصورة الرجل :

″كلما ازدادت المرأة علماً وثقافةً، صارت لغتها تشبه لغة الرجال . في هذه اللحظة ينتابني الانطباع بأن مدونة اللغة هي نفسها، إلى حد ما ( ... ) فثمة

فتيات يستخدمن لغة جامعية، ولغة نضالية، ولغة موزونة شديدة الجفاف والدقة، وتعابيرها معقدة إلى حد ما، ولا تستخدم إلا لماماً، عندها، أظن أن تلك الفتيات اللاتي يستخدمن مثل هذه اللغة لا يعين أنهن يفتقرن إلى لغة، بمعنى أنهن لا يصنعن لغةً عامة تختص بها المرأة، أي تلك التي يمكن أن نطلق عليها اسم لغة الجسد . لغة لا تستخدم فيها الكلمات، بل شيء آخر.″

″ثمة كثير من النساء مُستعمرات على مستوى اللغة، ورهينات تعابيرهن الخاصة . ولكي تكون تلك الفتيات مقبولات من المجتمع، اضطررن إلى الدخول، لنقل، في شرائع الرجال الخاصة باللغة، والقدرة على الابتكار، واللاتي فقدن هويتهن في مكان ما.″

المرأة الجديدة ترفض بحرارة كل ما من شأنه تشجيع السلطة، والعدوانية، والتنافس . فقد عافت نفسها تلك اللقاءات العامة التي تميزت بها حركة النساء في بداياتها، لاعتبارها إياها فارغة من تلك الديناميكية الأنثوية الخاصة :

″حينما يتجاوز عددنا عشر نساء، لا نعود قادرات على الاستماع إلى بعضنا . لا يمكننا هذا . أما في المجموعات الكبيرة، هناك ظواهر تتمثل في من يريد امتلاك السلطة من خلال الكلام وغيره، كما هو الحال في جميع المجموعات.″

″توقفنا عن عقد اجتماعات بالطريقة السابقة . وتنبهنا إلى وجود المزيد من المجموعات الصغيرة . وربما كان توزعنا على مجموعات تشاورية groupes de conscience، لرغبتنا في التعرف على أنفسنا بشكل أفضل، ولكي نتواصل باللغة، وليس بالكلام حول موضوعات خارجية، بل بالحديث عن أنفسنا.″

″لا أؤمن بالنقاش ضمن مجموعة كبيرة، هكذا، أعني عفوية، بل بنقاشات تدور فيها أشياء، لكني أعتقد أنها بلا جدوى.″

إن ما يجعل المجموعة الكبيرة لا تطاق بالنسبة للمرأة الجديدة، هو الرهاب من عدم المساواة، والخوف من بروز قادة، والخوف من تعريفات ونماذج تراها فارغة من المعنى، وغياب إمكانيات التعبير الحقيقية .

## 4 . قيد اللغة الذكورية

تشعر المرأة الجديدة باستحالة تحقيق ذاتها بلغة صنعت من كلماتٍ فقط ومن تراكيب منطقية . إذ لديها انطباع بأن هذه اللغة لا تكفيها لكي تعبر عما تريد القيام به . ليس لأنها تعد قيداً فقط، بل لأنها تشعر في الوقت نفسه، بها بوصفها وسيلة هيمنة، لأن من يعرف كيف يستخدم هذه اللغة، ويؤلف جملاً يمكنه وضع التكتيكات اللازمة لسحق الآخر :

″أشعر كثيراً أن الكلام شيء كونته الثقافة، وصادف أنه ذكوري، ولكنه اتخذ منحى ملغوماً . قد يكون الكلام مصيدة لشخص آخر . فمن خلال ما يمكنني قوله لك، أستطيع أن أقص عليك، وأدبج خطابات رنانة، من دون أن تعرف مقاصدي . إذا كنت أملك المقدرة الشفهية، ولدي سلطة الكلام، يمكنني أن أقص عليك أشياء كثيرة غير صحيحة، وأستطيع دفعك إلى التصديق ولكن حينما تكون اللغة حميمية. . . هناك ألغاز تمر، تشعر بوجود لغز سلبي أو إيجابي، يمكن أن أتحدث مباشرة، وهو أصعب بكثير من خداع الناس، وفي اللغة الشفهية، هناك في مكان ما، مفردات يتم اختيارها بعناية، ومع ذلك هناك ثمة عبارات بالغة القسوة، هناك المنطق، إذاً هو فعلاً المعقل الكبير، إنه المنطق، إما أن يكون هذا أو ذاك، ولا يمكن أن يكون خلاف ذلك .

″لا توجد كلمة أو تركيب جمل يعبر عما أريد . وهذا يصدمني، عندي انطباع أنني لست في داخل تلك الكلمات . أرى أن أغلب الكلمات لا تمثل شيئاً . عندي الانطباع، في أغلب الأحيان، أنني خارج الكلمات، في مكان آخر.″

تعد فكرة الهيمنة أو الخضوع غير متناسبة مع مبادئ المرأة الجديدة . لديها الانطباع بأن ″اللغة الذكورية″ تمنع إقامة علاقات نوعية بين النساء الجديدات :

″غالباً ما ينتابني الشعور بأني عالقة في صيغة تعبير لا يمثلني، صيغة يمكن تسميتها ذكورية ( . . . ) أحس بوجود حد، أو إذا شئت ما يشبه القيد لاسيما إذا أردت التعبير عن نفسي، تراني ملزمة باستخدامه، لأني لا أملك غيره . وإذا استخدمته، لا أكون أنا نفسي، هل تفهمين قصدي؟″

″تمثل بنى هذا المنطق وتلك اللغة، لغماً فعلاً . إنكِ لا تستطيعين التعبير عن نفسك، وهذا مُحبط، ويدعو إلى الإحساس بالغربة، إنه يمنعك من التعبير مباشرة″

وهو خطاب لم تعد المرأة الجديدة راغبة فيه :

″أعتقد أن هناك نساء أيضاً في الاجتماعات، سئمنَ المناقشات . الآن هناك نساء لم يعدن قادرات على مناقشة أي موضوع، حتى لو كان يتناول شيئاً بالغ الأهمية . لم يعدن قادرات على احتمال المناقشات″

## 5 . امتداد الأنوثة نحو ثقافة معينة

عالم تفسير المرأة الجديدة عبارة عن مجموعة تتكون من نساء جديدات . خلافاً للمرأة التقليدية والمرأة الحديثة تعد المرأة الجديدة إنجازاً جماعياً، وتعيش النساء المعنيات أنوثتهن جماعيا . من هنا، مطالبتهن باعتبار الأنوثة بمثابة ثقافة . بينما تتحدث كل من المرأة التقليدية والمرأة الحديثة عن الفردانية، تتحدث المرأة الجديدة عن ثقافة، فتراها تبحث عن الأصول والأسس . وغالباً ما يتميز هذا البحث بالعودة إلى ماضٍ روحاني :

″حينما نتحدث عن لغة للنساء، فنحن نعني ثقافة النساء، وهذا البحث عن ثقافة النساء، هو ما يهمني، أنا، بوصفه بحثاً نسوياً . وهذا ما أقوم به . أي إعادة اكتشاف ثقافتنا الخاصة بنا، وإعادة اكتشاف الذات، إذ إن الثقافة النوعية للنساء واللغة يمران من هناك . فالمجموعة س...، هي أيضاً بحث عن اللغة، لأن النساء يسعين إلى التواصل من خلال التخاطر . ويعد هذا البحث، بالنسبة إلي، جزءاً من البحث في اللغة . والعودة إلى لغتنا بوصفنا ساحرات . هذه اللغة الباطنية التي فقدناها، وأُنكرت علينا، وصار الرجال يخشونها فمسحوها تماماً منذ قرون، هي لغة أساسية . أظن أن هذه اللغة تعود في جذورها إلى الماضي البعيد، البعيد جداً في لاوعينا وتاريخنا، وفي تاريخ جميع النساء اللاتي سبقننا، وكان لهن تاريخهن . هذا يشكل ثقافتنا، لذلك يعود إلى الماضي السحيق . لا يمكنكِ إنكار أنكِ تنتمين إلى مجموعة تسمى نساء، لها ثقافتها، وتتميز بشيء معين، أي بثقافة مختلفة . ومن المهم جداً التأكيد على هذا الاختلاف . وينبغي أن يتأكد هذا الاختلاف في اللغة . وفي العودة إلى ثقافتنا.″

إذاً، لا بد من انبعاث ثقافة نسوية حقيقية ونوعية من رماد هذا الماضي . وتعود إعادة بناء هذه الثقافة النسوية إلى الماضي البعيد، لكنها تحمل بصمات عصرنا أيضاً من

عناصر وتفسيرات ذات طابع تحليلي نفسي . في السابق كنا أمام لا شيء، أي كان ذهننا عبارة عن صفحة بيضاء، أما الآن فنحن أمام ثقافة، أمام حياة نفسية نسائية، بصدد التكون :

″الحياة النفسية النسائية في الوقت الحالي احتمالية، ولم تعبر عن نفسها في التاريخ . لدينا . . . ماذا لدينا نحن، كإرث تاريخي نسائي؟ أقصد معاناة أمهاتنا، وجدّاتنا . ثمة بعض الصراعات كانت دائماً خاسرة . مع ذلك، ثمة قدرة لدى النساء موجودة، موجودة في الحالة البدائية، إذا جاز القول . وما نحاول القيام به، هو أن نوجد في الوعي، هو معرفة ما تعني الحياة النفسية للمرأة، أعني خصوصيتها .″

حياة نفسية مدفوعة إلى الأمام ونحو المستقبل :

″ترى ما الذي تعنيه الثقافة النسائية؟ وما الذي ستكون عليه تلك الثقافة النسائية؟ لا أدري . يخطر ببالي، على سبيل المثال، تبادل النصح : إننا نتواصل كثيراً، نعم، نتواصل كثيراً . لا، لا نتواصل، كيف ذلك؟ كيف يتم هذا التواصل؟ إننا نتبادل الكثير من الحرارة الإنسانية . ثمة كلمة تُقال في الوقت نفسه، بما أن اللمس موجود، كما في العلاقة الغرامية ربما أيضاً، فإن هذا يمر عبر الجسد، وكونه يمر عبر الجسد، فهو يغير المعنى، أي يغير أهمية الكلمات . إنه يغير كثيراً من الأشياء .″

إن تساؤل المرأة الجديدة عن ثقافتها ورفض الرجل وعالمه يؤديان بها إلى تثمين الرجل لما كان يقلل من شأنه دائماً :

″تقوم النساء بأشياء أساسية فعلاً، وقد أتاحت لي حركة النساء إعادة تثمين هذا الأمر، على الرغم من قول الرجال بأنه غير مهم . فالطعام، وتحضير الطعام أمر مهم، وأنا أرفض . . .، علَّمتني حركة النساء الاهتمام بقيمة الأشياء الصغيرة التي هي أشياء كبيرة .″

الحياة اليومية، وخصوصاً تلك التي نعيشها كل يوم، تكتسي قيمة ثقافية . ولم يعد يُنظر إليها بوصفها تافهة، بل تعبيراً عن ثقافتها : ترى المرأة الجديدة نفسها في الحياة

اليومية، وفي العلاقة بالأشياء التي تصنع حياة كل يوم، وتشكل هويتها الثقافية، وفي العلاقة بجسدها بنحو خاص، وهي علاقة تعتني بها، وتصغي إليها :

"الحياة اليومية أمر مهم للنساء بنحو خاص . لأنها هي ما تعيشه عن كثب . إنها أمر مهم . في حياة الرجال ثمة انقطاعات . إنهم لا يتحدثون عن حياتهم اليومية، ولماذا يتحدثون عنها؟ فالنساء تقدمها لهم على طبق . وهم غير معنيين بقضايا التسوق، والطبخ، وما إلى هذا . بمعنى أنهم لا يعيشون الحياة اليومية إلى حد ما . إنها تضايقهم، وهي ما يسمونه ثرثرة نساء"

## 6 . رد الاعتبار للثرثرة

"ترى المرأة الجديدة أن الرجل هو من صنع هوية المرأة التقليدية، أو المرأة الحديثة، وهي هوية تريد أن تقطع صلتها بها . يقتضي الأمر إذاً، بالنسبة إليها، القيام بإعادة قراءة وتفسير لما قُدم لها حتى الآن بوصفه واقعاً وتشعر به كنفيٍ لثقافتها من قبل الرجال . إضافة إلى إعادة إضفاء قيم إيجابية على السمة التي تميز الأنوثة جيدا، أي الثرثرة .

"تقوم الثرثرة على أشياء صغيرة عظيمة . إنها كما في ذلك الاجتماع الذي عقدته النساء . حيث تطرقنا في تلك السهرة إلى عدد كبير من الموضوعات التي لا تصدق قطعاً . لم يكن أمامنا أي جدول أعمال على الإطلاق . جرت الأمور هكذا، وكنا ننتقل من موضوع لآخر، فتتالت الأشياء . أخيراً عند نهاية السهرة تقريباً تكون لدينا الانطباع بأننا تناولنا جميع الأشياء المهمة التي لها علاقة بالمجموعة، أي بحيواتنا . أما أنا، فقد شعرت بأن السهرة كانت رائعة إلى حد ما . زد على هذا عدم وجود أي إحباط، وكانت الأحاديث تجري بمنتهى السهولة . ربما كان هناك مزيد من التسامح، وذلك لغياب روح التنافس بين النساء . جرت الأمور بشكل طبيعي . في ثرثرة النساء توجد أشياء بالغة الأهمية . فإذا جاز لنا اعتبار ذلك مهماَ، فلا يجوز إنكاره . وإذا اتفقنا على أن الثرثرة مهمة، فإن أي شيء يتخذ القيمة التي نضفيها عليه .

وتوقظ هذه القيمة، من خلال الاحتكاك الواعي واليقظ بين النساء، الجانب العاطفي، غير الرسمي، الذي يتميز بالحرية وغياب السلطة :

"أعتقد أن هذا كثير، طريقة أكثر...، طريقة عاطفية جداً للتواصل . عبر كثير من الأشياء، وكثير من التفاصيل، للتحاب، والتواصل، والتكلم، على سبيل المثال . الأسبوع الفائت ذهبت للقاء...، ذهبت إلى لندن لمقابلة إحدى صاحباتي التي أعرفها منذ زمن طويل . تحدثنا عن...، كما تكلمنا في الفلسفة والملابس وأشياء من هذا القبيل . لم نكن قد التقينا منذ سنتين، فتبادلنا الأحاديث عن الأحداث، وعما جرى . تكلمنا في كل شيء . تكلمنا في السياسة، لوجود أحداث في الهند والانتخابات في فرنسا . تكلمنا عنها . تكلمنا عن الأسفار، والأطفال، وتكلمنا عن الخياطة، لأننا عملنا في الخياطة معاً، وتكلمنا عن العلاقات، أي عن علاقاتنا العاطفية المتبادلة، وحللنا هذه الأمور كلها . تحدثنا عن الحركة النسوية، وعن النساء، وقصدنا بيت النساء في لندن . بمَ تحدثنا أيضاً، نعم، تحدثنا في الفلسفة الهندوسية، والتصوف، وكل هذا . أحب هذا كثيراً، وجدت أن هذا الحديث مع النساء وإمكانية الانتقال من الموضة، ومن موضوع إلى آخر..."

الثرثرة تكتسب من هذه الناحية دلالات إيحائية مختلفة :

"إنه لأمر مهم، تلك القصص المتعلقة بنواطير الأبنية، لكنها أحاديث قليلة الأهمية، لكن لماذا قليلة الأهمية؟ الآن تذكرنا حركة النساء بأهمية هذه المناقشات، وماذا تعني، لأني بدأت أفهم أن كل هذه الأحاديث المبتذلة التي نرويها، تعبر عن الرغبة في التواصل، فإن قلنا أشياء سيئة حول شخص ما، فذلك لأن هذا الشخص يحيرنا."

## 7 . لغة الجسد

في الحالة الافتراضية، تنتج هذه الثرثرة الصفات التي تميز اللغة النسائية بشكل نوعي، وهي اللغة التي تراها المرأة الجديدة في طور النشوء . ويمكننا من خلال ممارسة الثرثرة بلوغ صيغةٍ جديدة ومختلفة جذرياً . وثمة أوقات تدرك فيها بوضوح شديد هذه اللغة النسوية التي لم تعد تنتقل عبر الكلام فحسب . وكما في الثرثرة صار

هذا الكلام ثانوياً، بعد أن دخلت فيه عدة عناصر واكتسبت أهمية كبيرة، ونعني بها الحركة، والنظرة، واللمس، والجسد كله :

″أشعر أن ثمة شيء يحدث، ويمكنكِ أن تبقي في حالة صمت، وتختبري أحاسيس، ويمكنك الابتسام، وهنا يصبح الكلام ثانوياً، أي الكلام عل المستوى الشفهي . أنتِ موجودة، تنظرين، وتلمسين، وتشعرين، هذا على صعيد الإحساس، إنه شيء تعيشين اللحظة من خلاله . إنك خارج النماذج تماماً .

″أفضل عدم التكلم . أفضل التمكن من التواصل مع الناس من دون كلمات، بالنظر، والابتسامات؛ ومن وقت لآخر قد نتلفظ ببعض الكلمات، لكنها كلمات قليلة . أظن أن الكثير من الكلمات عبارة عن ضجيج اعتدنا عليه . وغالباً ما تكون هذه الكلمات فارغة، من دون معنى.″

هذه اللغة الجديدة ليست في الجسد فحسب، إنها نفسها تحمل مفهوماً جسدياً corporalité ذا أبعادٍ عالية الكثافة . تصبحُ هذه اللغة، بالنسبة للمرأة الجديدة تعبيراً عن هويتها الأنثوية تحديداً :

″تلك هي تجربة التواصل التي عشناها، إذا شئتِ، وتجربة لغزٍ نجعله يدور بيننا بمعزل عن الكلام، عبر جسدنا، والحركات التي يمكننا القيام بها؛ الحركات التي تندُّ عنا على المستوى الداخلي، الغريزي، قبل العقلنة . نحاول العثور على ما يمكن أن نكون عليه سابقاً، قبل أن نُستعمَر، نتثقف، ونتعقل.″

هذه اللغة النسائية، التي هي لغة الجسد هي عالمٌ تنشأ فيه مشاعر الغموض بالنسبة إلى المرأة الجديدة . تدخل في هذا العالم كثير من العناصر بالتزامن وبالتتابع لتساهم في خلق شعور بالانفراج، والتناغم . وترى المرأة الجديدة هذه الألغاز ذات طبيعة حركية ( مُنشِّطة ) :

″أنا الآن أكثر حساسية إزاء أي شيء آخر غير الكلام المسموع . الجسد، الوجه وخصوصاً العينان منه، وإشعاعهما، بل ومن خلال طاقة تندُ عنهما؛ أشعر بهذا كله وأنا في جماعة، أو صحبة امرأة حينما تتكلم . أنا على يقين أن في الجماعة خليط من المشاعر التي تخلق نوعاً من الجو الذي قد يكون رائعاً إلى حد ما.″

أمواجٌ تنتقل من امرأة إلى أخرى :

″عادة، لا قيمة لما نقول، لأننا لا نملك أشياء أخرى تدور بيننا، حينما لا يوجد جو، هذا التواصل بالأمواج، ربما بالارتياح، وينتقل عبر الفم، وفيما نقول . لكن حينما نكون معاً قد لا يعود للكلام أهمية تذكر . لقد لاحظتُ أنه في هذه اللحظة تحديداً أصبحت الأشياء أكثر بساطةً، وفي نهاية المطاف، كان لما نقوله أهمية كبرى، كله مهم نسبياً . الأشياء الصغيرة جميعها مهمة .

ويمكنها أن تجعل الكلام سطحياً ومزعجاً :

″يمكن للكلمة أن تضعف إذا كان التواصل حاداً، فإن كنت انظر إليك مواجهةً، على سبيل المثال، بشكل حاد فعلاً، فإن شيئاً ينتقل عبر نظرتك، آت من قلبك . الكلمة ضجيج الكلام . من شأنها أن تصبح . . . أن تكون ضجة خلفية، وفجأة، تتغير . فأنت تسمعين كلمة، ثم تجعلكِ هذه الكلمة ترددين شيئاً ما . وتفكرين بالكلمة، وتفكرين بالنظرة أكثر، لكنك ترين، ويجري الأمر على هذا النحو .″

إذاً يلعب الصمت دوراً مهماً في هذه اللغة التي ينبغي اكتشافها :

″في الوقت الحالي، الطريقة الوحيدة المتوفرة لدى النساء، للعثور على لغتنا، هي أن نجعل الصمت يخيم علينا جميعاً، وأن نتأمل، ونترك المجال أمام تدفق الجسد على شكل اهتزازات، وطاقات .

″من ناحيتي أقول إن الكلام لا يتم إلا في الصمت في الوقت الراهن . لدي فعلاً الانطباع بأن شيئاً ما راسخ في الجسد . أما العنصر العقلي فهو موضوع جانباً .″

الخلاصة، يمكننا القول إن الثرثرة بالنسبة إلى المرأة الجديدة تتحول إلى سلوك عملي تكمن نتيجته في خلق صيغة تواصل جديدة تماماً، صيغة تتميز بغياب العنف، والانسجام، والحب، وغياب الهرمية، والسلطة والقادة .

# المرأة النسوية
# ( نصيرة المرأة )
# الحل ث

## 1 . صراع الأجناس : رفض الاختلاف

يترجمُ وعي الاضطهاد المشترك بين النساء، بالنسبة إلى المرأة النسوية، برفض الاختلاف عن الرجل، والتصنيفات التي تقسم العالم إلى عالم ذكورة وعالم أنوثة . وهي تشعر بالاختلاف بوصفه محركاً لاضطهادها :

″برأيي، أن اختلاف النساء أمر مصنوع تماماً . وقد وجد لأشياء كثيرة، صنع لكي تكون المرأة ناعمة، ومصنوع لكي نتصرف على هوانا، لكي ندفع إلى الاعتقاد بأن الرجال والنساء متكاملون . لا يمكن القول إن الناس متكاملون، من دون القول إنهم مختلفون . يبدأ الحديث عن أنهم مختلفون، ثم يقال بعد ذلك بأنهم متكاملون، ثم يقال إن دور المرأة ليس أمراً سيئاً، لكنه شيء مكمّل لدور الرجل . ليس الأمر سيئاً بالضرورة؛ الذهاب إلى المكتب مُكمل، على سبيل المثال . إنه مثال جلف، لكن يمكنني إعطاءك أمثلة أخرى . حسناً، يمكن القول إن الحياة الجنسية للمرأة ليست بالضرورة أدنى من حيوات الرجل الجنسية، لكنها مكملة لأن لدى الرجل الفعل، أما لدى المرأة فلا يمكن أن يكون السلبية . الحقيقة أن الحديث عن اختلاف يبدو لي خطراً لأنه يستخدم في تشجيع فكرة التكامل أو الدونية.″

وتسعى إلى تحليله :

″الرجل والمرأة – بالمفرد – ليسا سوى فئتين يقوم دورهما على تسويغ حالة اجتماعية، وللسماح بديمومة هذه الحالة . هذا يتم وفق مستويين، إذا شئتِ، فمن جهة هو أمر يتيح إدامة هذه الحالة الاجتماعية، بمعنى أنه يمنع المرأة من التمرد . فإذا كانت الحالة الطبيعية للنساء أن يكن ربات بيوت، ولا يمارسن السلطة، وإذا

كانت حالتهن الطبيعية تقوم على ألا يكن عنيفات، أوعدوانيات، وعدم القيادة، بل منقادات، إذا كان هذا هو مجالهن الطبيعي، فليس ثمة سبب يدعوهن للتمرد على هذه الحالة . ومن أوليات التمرد هو القول أن هذه الحالة غير طبيعية، بل هي حالة فرضت عليَّ، ومصدرها سلطة خارجية يمكنني أن أتمرد عليها ."

ومقارعتها على كافة الجبهات :

"كنَّ يقلن : لا نريد هذا، لم نعد نريد هذا، يكفي اضطهاداً، نريد أن نكون كائنات بشرية . كلهن كن يقلن الشيء نفسه : إننا مثل الرجل، وهذا بالنسبة لي فعلاً . . ."

المرأة النسوية، مثلها مثل المرأة الجديدة تسعى إلى تغيير الوضع القائم، ويمر وعيها عبر مجموعات النساء اللائي تتقاسم وإياهن الهموم ذاتها . ولكي يكون تحليلها لاضطهادها فعالاً، ويؤدي إلى تغيير حقيقي للمجتمع، يجب القيام به جماعياً، مع نساء أُخريات؛ نساء تتقاسم المرأة النسوية معهن إرادة التغيير نفسها، وإرادة النضال والعمل :

"الوعي يعني تحليلاً أعمق للمكان، أو جميع الأمكنة التي يمارس الاضطهاد فيها، بمعنى أن يأتي الناس، أن تأتي النساء أولاً، لأنهن تمردنَ على شيء رأينه في عملهنَّ، أو لأنهن مللن ما يفعلنه في بيوتهن؛ لأن هناك أشياء تفقأ العيون، إذاً فالتمرد حتمي، لمن ليس لديهن فكرة عن إعادة النظر في طريقة لبسهن، أو سيستمرن في استخدام قيم ليس ضرورياً نقلها، وما تزال تساهم في حياة المرأة مثل الجميل والقبيح . هذا النوع من الأشياء . وفي الاجتماعات، أعتقد أنه بالإمكان محاولة تعميق هذا الأمر، ومضاعفة التحرك، وزيادة العمل النضالي للمرأة ."

الانتماء إلى مجموعة أمر اساسي، إذ بوساطتها تفكر المرأة النسوية بالأسباب التي تجعلها خاضعة :

"الهدف الأساسي لهذه المجموعات هو تحليل الاضطهاد، والسعي إلى التخلص منه ."

في الحياة اليومية، والعمل، والحياة الزوجية، وفي المجتمع عموماً :

″نسعى أيضاً إلى إيجاد تفكير نسوي خاص، يتشكل طبعاً من خلال الكلام، وعبر مناقشة موضوعات مهمة : فقد سبق لنا الحديث عن الحياة الجنسية، وهو موضوع نعود فيه دائماً لسوء الحظ، إلى الأشياء نفسها، كما حاولنا الوقوف على اختلاف التصرفات بين الرجال والنساء، ولماذا تتصرف المرأة على هذا النحو أو ذاك .″

لكي تعيه المرأة، وتكوِّن فكرة عنه :

″تكمن أهمية هذه الاجتماعات تحديداً في أن تتمكن المرأة من تبادل أفكارها مع الأخريات حول بعض الأشياء . هذا من جهة، ومن جهة أخرى لكي تتمكن النساء من تبادل المعلومات، والاستعلام عن بعض الأشياء .″

ولكي تجد لنفسها الأسلحة اللازمة لنضالها :

″أحب الذهاب للقاء المجموعة . أذهب إليها أملاً في أن يتم الحديث هناك عن قضايا تعني كل واحدة منا . إضافة إلى أني أحب أن أكون مع فتيات أخريات . أحب الشعور بأننا كثيرات نتفق على الأشياء نفسها، والقضايا نفسها . أشعر بأني لست الوحيدة غير الراضية عن الرجال، ومجتمع الرجال . عندها، أحس أن مثل هذه اللقاءات تمنحني الشجاعة . إنك تشعرين، وأنت ضمن المجموعة بأنك قادرة على القيام بعمل حقيقي بدلاً من هدر الوقت والجهد في تغيير آراء الناس .″

في المجموعات تتعلم المرأة وتستعلم عن كل ما يتعلق بالنساء بوصفهن نساء . فينشأ نوع من التضامن، والتماهي مع النساء الأخريات، النساء اللاتي يناضلنَ مثلها ضد قمع معين :

″هناك صرخت بالمطالبة، ثم اكتشفتُ أمرين رائعين لدى ″حركة تحرير المرأة MLF ″أولاً الاعتراف بأننا جميعا نساء، وأننا متشابهات، ولدينا جميعا أمر واحد نطالب به، وهذا من شأنه أيضاً أن يكون جزءاً من كلام النساء، أي ما سمعته من كلامهن . ولا يمكنني الآن تجاهل ملصق يتعلق بالموضة، لا علاقة له بي، وأقول : هذا لا يمثلني . بلى، إنه أنا أيضاً، أعده تماماً لي، بينما لم أكن أتضامن معه في السابق .″

وضد قامع ملموس . بالفعل، المرأة النسوية تناضل ضد الرجل بشكل أساسي، وضد المجتمع الأبوي ( البطريركي ) الذي ترى أن الرجل بناه من أجل الرجل :

″بالنسبة إلي، النضال ينبغي أن يكون ضد الرجال . ليس ضد الرجال بوصفهم كيانات بيولوجية، بل الرجال الذين يضطهدوننا، كما يفعلون الآن .

″لماذا يقال : الرجال؟ لأنني على يقين بأن غالبية فتيات حركة النساء لا يجرؤن على الاعتراف بأن الرجال هم أعداؤها.″

″الرجال الذين لا أرغب في الاجتماع بهم، الرجال الذين لا أريد أن تربطني بهم علاقات عاطفية . هذا بكل تأكيد ناشئ عن اختياري، ولكن بمعزل عن الاجتماعات السياسية، لا أرى عملياً سوى نساء، ولا أتكلم عملياً إلا مع نساء، باستثناء الرجال الذين يفرضهم عملي علي.″

ومن هنا استحالة الحوار مع الرجل :

″ على الصعيد السياسي بوجه خاص، أرى أن تقوم أي حركة تحرر من الناس المعنيين، وآخرين . يجب أن تقوم مع الذات، إذ لا يمكنني قبول أن تكون الحركة النسوية مختلطة . بالنسبة لي، هذه القضية هي قضية سياسية أساساً . اجتماعنا في الدائرة 13 حول الاغتصاب كان اجتماعاً مختلطاً . بعد ذلك، قمنا بعقد مقارنة كانت واضحة، إذ كان اجتماعنا أشبه باجتماع بين صيادين وأرانب للحديث عن الصيد . هذا غير ممكن . هنا، برأيي، كان من المهم أن يدور الحديث بين نساء . إنها قضية سياسية، قضية نضال . والمرء لا يرتب نضاله مع أعدائه، تنظيم ضد الأعداء وليس معهم.″

## 2 . نبذ المرأة التقليدية

لكن، خلافاً للمرأة الجديدة، فإن المرأة النسوية لم تتماهى مع نساء أخريات على أساس واقع جسدي مشترك . لهذا فإن المرأة النسوية لا تنبذ الأنوثة كما عرفت تقليدياً بوصفها المرأة – الموضوع، تابعة ولا قيمة لها فحسب :

″برأيي أن الأنوثة شيء تم تصنيعه تماماً، وهو ألفباء النسوية، أي مع سيمون دوبوفوار وكتبها الموسوم الجنس الثاني، إننا لم نولد نساء بل أصبحنا نساء . وليس هذا بالقول الجديد، ويبدو لي رفض بعض الجماعات المنتمية إلى″ حركة تحرير النساء″ اللاتي بدأن برفض هذه البديهية أمراً خطيراً، لأنها البديهية الأساسية لأي عمل نسوي . فضلاً عن هذا، ليس من باب المصادفة، في أيامنا هذه، أن بعضاً من أعضاء حركة تحرير النساء التي تتبنى أطروحة الاختلاف بين الجنسين، أي تلك المجموعة النسوية التي تتمحور حول التحليل النفسي يدعين أنهن نسويات ويتبنين هذه الأطروحة . إن أساس النسوية هو القول بأننا لسنا مختلفات من حيث طبيعتنا . فليست الطبيعة هي التي تفرض علينا طلي وجوهنا بالمساحيق، كما لا تقسرنا على ارتداء هذا الملبس أو ذاك . إنها حقيقة ثقافية تقمعنا اقتصادياً، وتستخدم لسلبنا العمل المجاني، كما تستخدم لنكون خاضعات للسلطة على جميع المستويات . ثمة سلطة سياسية على النساء، والنساء لا يملكن السلطة، ثم إن السلطة الإيديولوجية التي هي الحب الذي نمنحه للرجال، وعبادة صورة الرجل، وما إلى ذلك، هذا كله، جملة هذه الأشياء هي التي تدفع إلى القول أن المرأة أنثوية، إنها شيء يستخدم لقمعها .″

المرأة النسوية تنبذ هذه الأقلية من حركة تحرير النساء التي تنادي بخصوصية للنساء تقوم على الحتميات البيولوجية والثقافية :

″إذا نظرنا في بعض الأبحاث كتلك التي أجرتها مجموعة س...، وهي أبحاث تراهن على إمكانية نشوء شيء جديد في عالمنا، في داخل عالم قديم، وفي داخل المجتمع الحالي . نحن موجودات، ونجتمع، يجب ان تتمخض اجتماعاتنا عن شيء ما، حيث ستنبثق امرأة جديدة . وأنا، أؤمن بها، وأول ما أؤمن به هو قلب كل شيء رأساً على عقب . لا أظن أنه يمكن لهذا أن يتجلى في بنى موجودة مسبقاً .″

″تقوم أطروحة تلك الفتيات على أن المؤنث، قد دُفن، وطُمس، وكُبت – وهي الكلمة التي يستخدمنها لأنهن يعتمدن مصطلحات التحليل النفسي–، كُبت منذ قرون، وينبغي الآن إظهاره . وهذا، بالنسبة إلي سلوك مثالي . برأيي، لا يوجد مؤنث،

كما لا يوجد مذكر بل صراعات أنثوية، يمكنها، فعلاً أن تخلق لنا أشكالاً جديدة للكينونة، والتفكير، والعيش، لكن ليس لهذا علاقة ببنية هي أساسية بالنسبة إلينا.″

وترى المرأة النسوية أن مثل هذه الخصوصية ″الفطرية″ أو ″المكتسبة″ ليست ناشئة عن الميتافيزيقيا :

″نبدأ نوع من تمجيد المؤنث، والكلام الأنثوي، ثم سرعان ما نصل إلى شيء ديني.″

لكنها مناهضة لمبدأ المساواة المحبوب بالنسبة لها :

″إن جماعة التحليل النفسي ليست مع المساواة . وهن يقلن هذا صراحةً، ولسن مع المساواة في المهام، وما إلى ذلك، لاعتقادهن بأن النساء مختلفات، ولا ينبغي عليهن القيام بالمهام نفسها التي يضطلع بها الرجل.″

ويبدو لها أن الدفاع عن هذا المبدأ خطير :

″يبدو لي أن هذا المسار ينطوي على تمييز جنسي، إذ سنقول أننا سنشرع في القول أننا سنبدع بمبايضنا، كما كان يقول الرجال دائماً أنهم يفكرون بخصاهم . يبدو لي أن هذا المسار خطير، أي القول أننا سنبدع بجسدنا الأنثوي . فما الذي يعنيه هذا؟ يعني أننا نبدع انطلاقاً من أعضائنا الأنثوية، أي وأكرر، أننا نحمّل التمييز الجنسي، والاختلاف البيولوجي كل شيء.″

″ما أراه خطيراً، هو أنه حينما تطالب النساء بأن يكون لهن كلاماً أنثوياً، يبدون كما لو كن يكتبن بمبايضهن، وهذا يبدو لي بمثابة فخ.″

المرأة النسوية تقف في وجه هذه القيم التي ترى بأنها قيم المجتمع البطريركي، وتبقي على هيمنة الرجل :

″في الوقت الراهن، ترى أن جميع معايير الجمال، واللا - جمال هي معايير ذكورية، وهي معايير موروثة . إنها طريقة لجعل الآخر موضوعاً، وهذا هو إرث المجتمع الحالي.″

″ذات مرة قالت : ″رأيت آني؛ تلاقينا، آني فتاة شابة وجميلة، الخ″ هذه الجمل تثير سخطي . رغبت ذات مرة، لو كنت أملك عنوان ماري كاردينال [(1)]،

لأكتب إليها رسالة أقول فيها أن هذه الجمل صدمتني : ″شابة، وجميلة″ كلمة جميلة لا معنى لها . ولو توقف الأمر عند هذا الحد لما كان الأمر خطيراً، الأخطر، بالنسبة لي، هو إنها لغة ذكورية . فما الذي يعنيه أن ″تكون المرأة جميلة″ في الوقت الراهن؟ وفضلاً عن هذا فإن الإشراك بالجمال مزعج، لأنه يعني الاهتمام بالخارج، بالجسم، وهو يعني تكرار الوقوع بما يلصقه الرجال بنا دائماً، وهو أحد الأشياء التي قيدوا بها النساء . حينما أسمع مثل هذا الكلام مرة أخرى على لسان النساء .″

## 3 . عالم ما بعد النسوية

المجتمع كما تراه المرأة النسوية ليس هو المجتمع المؤنث بحسب رؤية المرأة الجديدة، بل هو عالم المساواة، من دون اختلافات، ومن دون تصنيف أنثوي وذكوري، وخال من هيمنة أحدهما على الآخر . وهنا يتم الحديث عن مجتمع خنثوي .

″إن تحدثت عن طوباوية، هي فعلاً طوباوية، فلا أظن أن تكون قابلة للتحقق هنا والآن . إنها أشبه بالخنثوية . إنه رفض التصنيف إلى مذكر ومؤنث .″

يبدأ هذا المجتمع الجديد، بالنسبة إلى بعض مجموعات النساء . الحقيقة، أن يكون المرء نسوياً فإنه يغير تماماً علاقة المرأة النسوية بالعالم المحيط بها :

″من الصعب جداً أن تعيش المرأة نسوية، لأنه أمر يتحكم بالحياة العاطفية كلها، بحياة العمل، وبالسلوك في العمل وباختيار العمل، وباختيار الأمومة أو عدم اختيارها، وطريقة تحليلها . أخيراً، إنه تغيير تام للحياة بالنسبة لشخص غير نسوي . مثلاً، إنه رفض الزواج، بكل بساطة، لأنه أحد الأفعال الوحيدة التي أستطيع القيام بها على الصعيد الاجتماعي، والمنظور إليه من الخارج، والذي أستطيع تفسيره، بوصفي امرأة نسوية : رفض مؤسسة تساهم في اضطهاد المرأة .″

وخصوصاً مع النساء اللاتي ينتمين إلى المجموعة نفسها :

″أظن أن علاقة المساواة تأتيني من النسويات ( نصيرات المرأة ) ولم أجدها في أي مكان آخر . إنهن يسعين إلى الهروب منها بأي شكل من الأشكال

. نحاول كثيراً الذهاب في الاتجاه نفسه، لا سيما بالنسبة لمفهوم السلطة هذا، فعلاً أشعر عفوياً أنه ليس هناك أي طموح إلى الهيمنة.″

إلا من خلال الجماعة :

″لا أعتقد أنه بوسعنا تجاوز مرحلة معينة على الصعيد الفردي . أعتقد أننا مضطرون للخروج منها جماعياً وفردياً، الأمر صعب، وربما مستحيل.″

ومن خلال وعي المرأة النسوية لاضطهادها، وضرورة النضال ضد الرجل، وما يمثله، ومن أجل بناء مجتمع جديد، وولادة شيء جديد مثل : الكلام، والكتابة، والهوية، لكنها تحمل في طياتها آثار النضال والعنف، والفعل النسوي :

″ما يمكن أن يكون نسوياً بالتحديد، هو شكل التمرد فقط، وتنظيم العالم الذي سينجم عنه.″

ومع أن الشكل النموذجي للعالم الجديد هو الخنثوية، فإن النضال يكون بالأحرى نضالاً ″ذكورياً″ :

″ثمة أشياء أُعطيت للرجال ولا بد من استعادتها . مثل العدوانية، والعنف . لست من القائلات بوجوب من إلغاء السلطة . بل كل شكل من أشكال الهيمنة، وليس في هذا أي غموض . وإلغاء كل شكل من أشكال الهيمنة يعني إعادة توزيع السلطة؛ وأن تكون السلطة في متناول الجميع، وأن يكون المرء سيد نفسه . وأن يكون للجميع سلطة متساوية في اتخاذ القرار . من حيث المبدأ، أنا لا أرفض فكرة السلطة.″

″اللهجة العامية أساساً، لهجة الذكر، لكن هذا لا يمنعنا من استخدامها . بل أريد أن أقول عكس هذا، فربما من المهم أن نكون كالرجال في لحظة معينة كما يقال، على صعيد خلق التصور، وكيفية التكلم، بمعنى أن لحركة النساء طريقة معروفة جداً في الاستفزاز تقوم على احتذاء أحذية رجالية، وارتداء قمصان جلدية . كان ذلك مهماً للقول بأننا لا نرتدي أثواب الغجريات كما تفعل جماعة التحليل النفسي.″

## 4 . لغةُ نضالٍ وعملٍ

هذه الهوية النضالية الناشئة عن النضال ضد الرجل تتجلى في وسائل التعبير، والكلام، والكتابة :

″هنا، أعترف بأنه قد تكون ثمة خصوصية، لكنها خصوصية قديمة من الناحية التاريخية، هنا، والآن، واليوم، خصوصية من أجل إبداع نسوي، وفن خاص بالنساء، وكتابة نسائية الخ . سيكون هذا حتماً في النضال، أي خصوصية في التناقض مع الرجل، إذا شئتِ . إننا نناضل ضدهم، إذاً، فنحن نوجد لأنفسنا أسلحة، نصوغ أسلحة ليست بالضرورة تلك التي يستخدمونها هم، وقد تكون مختلفة، ولكن بالمعنى الذي يوجد تناقض . وفي النضال، فإننا نخلق طوباويات، ونصنعُ لأنفسنا طرائق في الكلام، أشياء من هذا القبيل، لكن ليس انطلاقاً من جسدنا على الإطلاق، انطلاقاً من بنيةٍ أنثوية لا زمنية ( ثابتة ) .″

وفي علاقاتها بنساء أُخريات يفكرن مثلها :

″أظنُ أن العلاقةَ الأكثر مباشرةً التي يمكن أن تكون لدي، هي العلاقة بالمرأة النسوية، في هذه اللحظة ومنذ بعض الوقت . لكني أعتقد بأني قادرة على تفسيره بالضبط، لأننا متفقتان ( على نفس الموجة ) ، لكن ليس على صعيد الشخصية . وهو ما لا أكترث له على الإطلاق . على صعيد الإيديولوجية ورؤيتنا للأشياء، وتحمل المرأة لمسؤوليتها بوصفها كذلك، وما إلى ذلك . هذا يمنحك علاقة أكبر بكثير، إذا شئتِ، مع امرأة تعرفين أنها مثلك، وتعرفين أنها تبذل جهوداً في الاتجاه نفسه، إنها تحاول أن تتفتح في الاتجاه نفسه، وأنها وعت مثلكِ، وأعتقد أن هذا يقرب بيننا كثيراً .″

إنها لغة المرأة الواعية لاستغلالها، وتناضل مع النساء الأُخريات :

″لا أظن أن لكلام لنساء خصوصية معينة؛ إنه نوعي في ما يردن قوله، وأنا، حينما أفكر في كلام النساء، فإني أفكر في كلام نساءٍ ينعمن بوعي ما، لأن كلام النساء غير الواعيات، لا يبدو لي مختلفاً كثيراً عن كلام الرجال .″

والتي تعلن تمردها :

″الكلام الحقيقي هو الصرخة؛ هو التمرد، لا بد من الإصغاء إلي، الخ . نعم، إنه الصرخة، ليس في البداية، إنه الصرخة فقط . ما زلت أتذكر نساء

AGES، في البداية لم يكن يسمعن سوانا، ومع ذلك كنا نصرخ . أما الآن فقد هدأت الأمور . لكن حتى حينما نتحدث في موضوعات تهمنا، فإننا نتكلم على شكل صرخات، أي هناك دائماً تعويض، شيء نطلبه في مكان ما، وهذا هو ما أشعر به، وهو ما أُطلق عليه اسم كلام النساء.″

بطريقة عنيفة :

″الكلام الذي يمكننا تبادله قد يكون كلام العنف، والتحرر.″

والذي يخلق الصمت، ليس للإصغاء إلى جسدنا، كما تقول المرأة الجديدة، بل في حركة تمرد ضد المُضطَهِد، وضد القيم التي يحملها :

″يمكن الافتراض أن امرأة، في الوقت الراهن، أحرزت تقدماً في وعيها ونسويتها قد تصبح صامتة . كل ما يسعها قوله، باعتبارها غير قادرة على اختراع لغة سريعاَ، على أي حال، لن تكون مفهومة ممن يقابلها، وكل ما يمكنها قوله عبارة عن كلمات تنتمي إلى المجتمع الذي ولدت فيه، والتي نجحت في التمرد عليه.″

لهذا فهي ترفض النساء اللاتي يتكلمن في ما بينهن إلا لمجرد الاستمتاع بالكلام، لأنها ترى فيهن تجلياً معاكساً للسلطة البطريركية :

″ليس لدى النساء الواقعات تماماً تحت سلطة الرجال كلاماً نسائياً . إن لكلامهن صفة كلام الرجال الثانويين، أي خدم الرجال، الأقل شأناً من الرجال.″

وترى في ثرثرتهن علامة على الدونية التي لا يمكن للمرأة النسوية اعتمادها :

″النساء اللاتي لسن نسويات ( أي لسن من أنصار تحرر المرأة ) يثرثرن، لأنه لم يبق لهن أي شيء يقمن به سوى الثرثرة . وهن غير واثقات من أي شيء، وتراهن يغتبن هذا أو ذاك.″

وهي لا تهتم بهذه الثرثرة :

″ لا يهمني ما يتبادلنه النساء بينهن من أحاديث في المقاهي على الإطلاق. . وأظن أنهن يستخدمن الخطاب الذي علمهن إياه الرجال، حول الملبس هذا الخطاب لا أجده ممتعاً . النساء اللاتي يتكلمن في ما بينهن لسن أكثر أهمية من

الرجال الذين يتحدثون عن كرة القدم، ويتداولون قصصهم الذكورية، ولا يختلفون عن النساء اللاتي يتكلمن عن أي شيء . هذا غير مهم أبدا . لا أحد يضطلع بدوره.″

هذا الكلام بالنسبة إلى المرأة النسوية ليس مهماً فحسب، بل هو أيضاً كلام ضائع، وغير مفيد لأنه لا يفضي إلى أي شيء :

″المؤسف جداً في الأمر، هو أنهن لا يستفدن من هذا التضامن الذي يمكنهن إيجاده للحديث عن أشياء غير الحديث عن الأولاد، وغائطهم، والقضايا التي يعشنها باستمرار، والتي تشكل جزءاً من حياتهن.″

وهو كلام فارغ، لخلوّه من الدلالة :

″ما أعنيه بالفارغ، هو ذلك النقاش الذي يدور في حلقة مفرغة من دون أن...، حيث أشعر أن المُخاطَب وأنا نحاول القيام بلعبة بالغة السطحية . إنه كلام لا يتناول أمراً مهماً يمكن الحديث عنه.″

إنه دليل عجز، وعدم قدرة المرأة على الإحساس بمسؤوليتها، فينعكس عليها وعلى النساء الأخريات :

″الثرثرة تعبير عن عجز النساء، وعن الصعوبات التي تعترضهنَّ في معرفة ما هن عليه، وما يردنه، أو يرغبن فيه . إنه تعبير عن عدم الرضى العام . أظن أن هذه هي القضية . لهذا نرى اختلافاً حقيقياً بين سلوك الرجال وسلوك النساء في المكاتب . لوجود جانب واضح من الثرثرة والنميمة، وهذا ما يقلق المرأة غير الموجودة بين الرجال، أو أن وجودها أقل بكثير بينهم.″

ترى المرة النسوية أن الثرثرة ميزة النساء اللاتي لا سلطة لهن، ويفتقرن إلى إرادة تغيير أي شيء في ظروف حياتهن، مثلما يفتقرن إلى الهوية :

″إنهن يفتقرن إلى الهوية، لأنهن، بكل بساطة، يفتقرن إلى الاستقلالية، ولا يملكن حرية الاختيار من كل النواحي، ليس على الصعيد العملي فحسب، بل حتى على صعيد القيم، والمُثُل التي يمكن أن يحملنها . فكل شيء حددته الحضارة والثقافة ( ... ) ولكي يكون للنساء لغة خاصة بهن، ينبغي أن يجدن لأنفسهن

هوية معينة يصعب تحديدها . وأعني بالهوية إمكانية الاختيار، والاستقلالية، والخيار الحر، وهي أمور لا تملكها النساء في الوقت الراهن.″

---

(1) - إشارة إلى كتاب ماري كاردينال Marie Cardinale وآني لوكلير Annie Leclerc الموسوم : بمعنى آخر Autrement dit .

# الفصل السابع
# التصديق يعني الرؤية[(1)]

يتضح من الأمثلة التي قدمناها في الفصلين السابقين التداخل الوثيق بين التصور الاجتماعي للأنوثة وتصور كيفية التكلم الأنثوي والانزياح الذي يتم بين طريقة التكلم والثرثرة . يبدو التصور الثاني بوصفه شمولية وحدثاً مركزياً يمكن أن يؤدي إلى مقولات مختلفة من التأويل .

في هذا الفصل والذي يليه، سنوضح بمثال محدد أن أوصاف المرأة وطريقة كلامها واقع بُني حول موضوع حقيقي : هو الموضوع الملحوظ؛ لكن هذا الموضوع نفسه ليس جزءاً من هذا الواقع . فالتصور ليس الموضوع . أو، كما يشير ماغريت Magritte بعد أن رسم غليوناً ( معنوناً لوحته باسم : خيانة الصور ) : ″هذا ليس غليوناً!″

## 1 . افتراضات حول تصورات المراقب

أ/ في حالة اجتماعية معينة، يمكن الافتراض أن المراقب يخلع على النساء سمة جنسية، و″يستدل″ عليهن بثرثرتهن مهما تكن الطريقة التي يتكلمن بها فعلياً . عندئذٍ ينجم عن تصوره للنساء، في التواصل نفسه سواء أكان لفظياً أم غير لفظي، دلالات مختلفة : فالمرأة، خلافاً للرجل، لا ″تتكلم لكي لا تقول شيئاً″ فحسب، بل هي تافهة، وطائشة، ولا تكتم سراً، وفي الوقت نفسه تراها تواصلية، ومعبرة، ودافئة، ومنفتحة . كما يمكن الافتراض بأن المراقب يجدها أقل ذكاء وقدرةً على الإبداع من الرجل، إضافة إلى افتقارها للفاعلية .

**ب/** زد على هذا أن بعض الحركات، وعلامات التواصل غير اللفظية، والعناصر الخارجة عن الإطار اللغوي التي تشمل الخطاب اللغوي، تراها معزولة وتفسر إما بوصفها أنثوية أو ذكورية . لهذا فإن أوصافهنَّ تأتي لتشكل مؤشرات – مُختارة – إلى العامل اللغوي نفسه، وتستخدم كتأكيدات على تخمينات المراقب

. يشير بعض الباحثين الجدد ( شيرزر Sherzer، 1973، وسلاما-كازاكو Slama-Cazacu، 1976 ) إلى أن الحركة قد تعمل كجزء من تركيب الملفوظ . ومن شأن طبيعتها الأيقونية أن تؤكد الطريقة التي يمكن إدراك الخطاب من خلالها . فينظر إلى وضعيات الجسم وحركاته بوصفها مؤشرات على نوايا المتحدث ( شد انتباه أحدهم، على سبيل المثال ) ، ومن شأنها "التأثير" على الملفوظ الذي ترافقه هذه الحركات وطريقة تلقيه وتفسيره . إذا نقلنا هذا الأمر إلى عالمنا النظري، فهو يعني أن وصف الحركة يدخل في مجموعٍ متجانسٍ لأوصاف موضوع معين . يتشكل هذا المجموع بحيث يمكن اشتقاق أي وصف من أي وصف آخر، أو إعادة تكوين المجموع استناداً إلى بعض تلك الأوصاف . يمكننا، من ثم تخمين أن وصف المراقب لبعض الحركات، مثل الحركات القوية إلى حد ما، الصادرة عن الذراعين والتي توصف بالحركات المسرحية، يسمح للمراقب ( على الأقل في ثقافتنا ) بإعادة بناء تصوره عن النساء .

**ت/** لتصور المرأة طريقه الخاص، ويخضع لقوانينه الخاصة، وهو مستقل ويُظهر عالمه الخاص وآثاره الخاصة . المراقب لا يسم النساء فقط بسمة جنسية، ولا "يستدل" عليهن من خلال هذه الثرثرة مهما كانت طريقة كلامهن فعلياً، بل يفسر هذه الثرثرة دائماً تفسيراً مختلفاً، ويضيف إليه باستمرار صفات جديدة، ومتنوعة، تبعاً لما تقتضيه ضرورة اللحظة . وبالفعل، فقد رأينا أن المراقب لا يتفاعل إلا مع أوصاف الموضوعات . وهو قادر على الولوج إلى مجموع متجانس من الأوصاف التي يستخدمها، ويبنيها تبعاً للمنظور الذي يعتمده ووجهة النظر التي يؤمن بها .

**ث/** كل هذا يجعلنا نعتقد أن تصور المرأة والثرثرة ليس مشتركاً بين الرجال فحسب، بل بين النساء في ما بينهن أيضاً . ينجم عن المقاربات النظرية المتعلقة باللسان والجنس دلالات إيحائية مُضمرة لا تختلف عن الأنماط المسبقة حول الرجل في الشارع . وهي نماذج، يتفق حولها الباحثون من الجنسين بلا تمييز . وكذلك فإن قسماً من النساء اللاتي تمت مقابلتهن اعترفن بهذه الثرثرة – وبذلك تصبح ملكاً لهن – من دون أن يُعدن النظر

فعلياً في مشروعية وجودها . ويبدو أن الرجال والنساء يجمعون على القول أنه "لا دخان بلا نار" .

---

(1) - نشير إلى أننا لم نترجم الفصل السابع كاملاً لأنه عبارة عن توصيف لاختبارات ميدانية لم نجد ضرورة لوضعها لأنها لا تهم القارئ العربي كثيراً . ( المترجم ) .

# خاتمة

سعت هذه الدراسة إلى بيان الطريقة التي يعمل من خلالها التصور الذي يصوغ الواقع الاجتماعي – أو واقعاً اجتماعياً – لكل فرد سواء أكان أنثى أم ذكراً . يمكن القول عموماً، إن النساء يعتبرن ثرثارات . ومن ثم، فقد اهتمت الدراسة بالتصورات العقلية التي تقود المراقب – رجلاً كان أم امرأة – إلى التمييز بين الكلام المؤنث والمذكر، وتوضح الطابع العنصري لهذا التصور .

الأقوال المأثورة، والاقتباسات المأخوذة من كتب المحادثة المعروضة في بداية هذا العمل تدل على ديمومة سمة الثرثرة التي تعزى، هنا وهناك، وبالأمس واليوم، إلى النساء إجمالاً . هذه السمة، التي تبرز بنحو خاص، في المصادر التي تستند إلى الحكمة الشعبية، تعمل كسمةٍ عنصرية مقترنة بجميع النساء من دون تمييز، وتدمج بهوية بيولوجية . بحسب هذا المنظور، فأن كون الشخص امرأة ليس صفة من بين صفات أخرى يتميز بها الفرد . أن يكون الشخص امرأة يعني تماهيه بخصائص يعزوها المراقب إلى أقلية في مجتمع معين يتصوره، بوصفها ملائمة ليصف بها المرأة . المراقب ״يتعرف״ على النساء من خلال ثرثرتهن، وعلى الثرثرة بدورها، بوصفها خاصية أنثوية . وبخلاف الرجل، الذي لديه المجال مفتوح أمام جميع الخاصيات الفردية، فإن خطاب المرأة المحصور في مجال من الإمكانيات المحددة، يرفض المعطيات الفردية . وقد حدد موضع الثرثرة في المرأة ״من الناحية الجسدية״ .

ما الذي يقوله المتخصصون في هذا الموضوع بعد أن عكفوا على دراسة مسائل اللغة وطرائق التكلم؟ إن التفحص المنتظم لمختلف الدراسات النظرية التي قدمها الأنثروبولوجيون، والإتنولوجيون، وعلماء الاجتماع، والألسنيون، والمتخصصون في اللسانيات الاجتماعية لا تكشف عن أن مفهوم الثرثرة خاص بالنساء . ومن ثم، فإن القضية لا تبدو مطروحة . لكن، لدى النظر فيها عن كثب، والتدقيق في النصوص المعنية، دهشت لديمومة التمييز بين طريقة التكلم الأنثوية وطريقة التكلم الذكرية من جهة، والتقييمات المرتبطة بهما من جهة أخرى، وبعدها تقديم تفسيرات لهذه الظاهرة .

حقيقة الأمر هي أنه طالما عُرضت ″طريقة المرأة في الكلام″ بوصفها أمراً واقعاً . ولسنا بصدد البحث عن التماثل بين طريقتي الكلام، ولا يهمنا إلا ما بينهما من اختلافات تحديداً . . بعد الوقوف على الاختلاف بين طريقتيّ الأنثى والذكر في التكلم، فإن التقييمات التي خلص إليها المتخصصون لاحقاً للهجة الأنثى، بالتعارض مع اللهجة الذكورية، تذكرنا بـ″الحقائق″ التي كونتها الحكمة الشعبية . وهي، إذا آمنا بها، أن لهجة النساء أكثر تكلُّفاً من لهجة الرجال، وأكثر حذلقة، وإفراطاً في التصويب، وهي غير تأكيدية بشكل كاف، وغير واضحة، وانفعالية، وذات مضمون فارغ نسبياً، ولكنها أيضاً أكثر انسيابية وغزارة . هذه التوصيفات ليست، في حقيقة الأمر، بعيدة كثيراً عن تلك التي ينسبها رجل الشارع إلى الثرثرة .

في الأعمال التي درسناها لا يكتفى بتقديم مؤشرات، وعلامات على هذه ″الظاهرة″، ومن ثم جعلها إلى حد ما، تشخيصاً من خلال تكميمها، بل يُجهدُ في تفسيرها في الوقت نفسه . وكما لو كانت نوعاً من الأمراض التي يجد فيها الباحثون حتميات فطرية أو عوامل بيئية تنشأ مما هو موروث أو من تفاعل الاثنين معاً . ومن ثم، ينشأ عن هذه الملاحظات والتجارب فكرة معينة عن المرأة، وعن طريقتها في التكلم، وهو ما تعرفنا عليه في الفصل الأول من هذا الكتاب .

وأوضحت الفصول التي تحدثنا فيها عن المقابلات كيف تتصرف المعنيات، أي النساء إزاء ″التهمة″ الموجهة إليهنَّ . ما هي حقيقة الثرثرة بالنسبة إليهن؟ هل يشعرن بأنهن معنيات بسمةٍ تخلعُ عليهنَّ . إن الـ4500 دقيقة من المقابلات تبين بوضوح أنهن في مواجهة هذه الحقيقة، ويتشاركن فيها، ويفسرنها تبعاً لمنظور كل منهن . وقد اتفقن جميعهن على أن الثرثرة عبارة عن سمة عنصرية، وأنهن يقبلنها أو يلقين بها على عاتق نساء أُخريات!

لقد مكنني استنادي على أقوال ستين امرأة من وضع أربعة نماذج من الثرثرة اتسمت بقبول الثرثرة أو رفضها، من خلال حضور أو غياب التماهي مع المرأة الثرثارة . في الحقيقة، إن الشعور بالانتماء إلى جماعة، وطبيعة هذا الانتماء – بالأحرى الانتماء إلى أقلية – يؤثر في الطريقة التي يفسر الفرد من خلالها حالته .

النماذج الأربعة هي أنموذج المرأة التقليدية، والمرأة الحديثة، والمرأة الجديدة، والمرأة النسوية . وكل من هذه النماذج يمثل منظوراً مختلفاً للواقع نفسه، وللتصور

نفسه، أو للمجال المعرفي نفسه : للمرأة وللثرثرة .

تشترك الحلول التي تطرحها كل من المرأة التقليدية والمرأة الحديثة في قبولهما للثرثرة بوصفها قيمة خاصة بالنساء ومقصورة عليهن . ويتصفان بتفضيلهما للثرثرة ويرفقنها بقيم إيجابية . المرأة التقليدية تقبلها من دون أن تفصح عن ذلك كثيراً، أما المرأة الجديدة فتعدها أمراً اجتماعياً مقبولاً، بل وتعتمده صراحةً .

في المقابل فإن الحلول التي تقترحها كل من المرأة الحديثة والمرأة النسوية ترفض هذا الشكل من التواصل، وتراها تقترب من الرجال وقيمهم أو تطالب بالمساواة بهم .

المرأة الجديدة، والمرأة النسوية تتماهيان مع النساء إجمالاً . ونظراً لوعيهما بكونهما أقلية، فهما تسعيان إلى تغيير المجتمع، ولكن في الوقت الذي تطالب فيه المرأة الجديدة بوجوب تأنيث المجتمع، فإن مثال المرأة النسوية هو الخنثوية ومجتمع المساواة .

لا ترى المرأة التقليدية ومعها المرأة الحديثة، أنهما تنتميان إلى مجموعة أقلويّة . ولا تسعيان إلى تغيير الواقع الراهن، بل تتكيف كل منهما مع حالتها، وتبحثان في الطبيعة الأنثوية، عن الأسباب الكفيلة بتفسير مكانة المرأة في المجتمع، فتستسلمان لها، أو تبتعدان عنها .

من الناحية التاريخية، سبقت المرأة التقليدية، والمرأة الحديثة إلى حد ما، المرأة النسوية في البلدان الغربية، ولحقت بها المرأة الجديدة . لكن الخطأ يكمن في تخيل التصور الاجتماعي للمرأة وللثرثرة بوصفهما تطوراً تم على مراحل أو وفقاً لقفزات متتابعة : امرأة تقليدية، ثم امرأة حديثة، وبعدها امرأة نسوية ثم امرأة جديدة واستنتاج إحداهن من الأخرى .

كل تصور، سواء أنجزته امرأة تقليدية، أو امرأة حديثة، أو امرأة جديدة أو امرأة نسوية، هو تصور مستقل . يحكمه عدد من القواعد الداخلية تؤمن تكاثراً أميناً تقريباً للأوصاف تفرض ما يمكن معرفته حول المرأة المُتَصوَّرة .

لكن، على الرغم من أن كل نموذج يقدم عناصر جديدة ويوسّع المجال الدلالي للتصور فهو يغتني ويعاد تأويله مع أن كل منظور يتمتع بنوع من الاستقلالية ويبدو أنه يستبعد أي منظور آخر، وهي نماذج تتكون حول واقع اجتماعي لا يتغير من حيث الجوهر . أي إنه واقع يقرن الثرثرة بالنساء . ولا يهم أن تكون هذه الثرثرة محمَّلة

بدلالات إيحائية إيجابية أو سلبية، فإن مجرد قرنه بكيانٍ وبكل أعضاء هذا الكيان من جهة، والمظهر الحتمي لهذا الاقتران، من جهة أخرى، يجعل منه سمة عنصرية . ومهما يكن تصور المرأة والثرثرة مختلفاً فهو ذو طبيعة عنصرية، يشارك فيها الجميع بمن فيهم النساء .

هذه الصفة بارزة بنحو خاص، في الاستبيانات . فالطلاب والطالبات المدعوون إلى تقييم اثني عشر رسماً يمثلون ستة رجال، وست نساء بهيئات متشابهة، قد تمكنوا من ترتيب المعايير التي اقترحتها عليهم، كل حسبما يشاء . وتبين النتائج بوضوح أن تصور المرأة الثرثارة ظل يخالط أذهان الناس . الطلاب ينظرون إلى النساء المرسومات بوصفهن ثرثارات، وتافهات، وطائشات، وغير متحفظات . وتقترن هذه المعايير بالتعبيرية، والتواصلية والحرارة . في المقابل، جاء تقييم الرجال المرسومين مختلفاً . إذ نظر إليهم الطلاب بوصفهم أكثر برودة، وأقل قدرة على التواصل، والتعبير، وأكثر عقماً، وكذلك أكثر تحفظاً، وجدية، وأكثر أهمية، وأقل ثرثرة .

في الحقيقة، مهما يكن المنظور المُعتمد، ومهما كانت المصادر المسؤولة، وسواء رجعت إلى الحكمة الشعبية، والأدب المتخصص، والنساء اللاتي قابلتهن، أو الطلاب والطالبات الذين طرحت عليهم أسئلتي، ومهما كانت الحالة، سواء أكانت حالة الاستبيان الذي استخدم فيه الفواعل معايير وضعتها بين أيديهم، فإن تصور المرأة الثرثارة تصنع واقعاً اجتماعياً لكل الأشخاص المنخرطين في العمل . هذا التصور مستقل بالنسبة إلى الأشخاص الذين ينجزونه . إنه يشكل منظومة متجانسة من علاقات قائمة بين عناصر تتنضد وتنتظم بواسطة شخصيات تمت مقابلتها واستؤنس برأيها تبعاً للحالة التي وجدت فيها، والمنظور الذي اعتمدته . وهو ما أثرى هذا التصور، لكنه لم يغيره .

وتبين النتائج التي حصلنا عليها من الاستبيانات اقتضاء آخر لهذا التصور . إنها تُظهرُ أن تصور المرأة الثرثارة مستقل ولا علاقة له بالنساء، وطريقة كلامهن و"لهجتهن" المُتصوَّرة . ولا تقع مسؤولية التقييم الذي قدمه الطلاب والطالبات على عاتق النساء ( المرسومات ) أو لهجتهن ( لأنهن لا يتكلمن ) . فقد تم تحديد النساء من قبل الطلاب، وبما أنهم يعتقدون، إذاً فهم يرون .

هذه الخلاصات تفرض نفسها لا سيما أن مقاربات الظاهرة كانت متنوعة بانتظام، وسعيت إلى حصرها تحت عدة زوايا عبر مناهج مختلفة، وذلك من خلال تفحصها في

سياقات متعددة، وإعطاء الكلمة إلى تلك التي تعنيهن الثرثرة مباشرة .

كما تتناول هذه المقاربات طبيعة الظاهرة الملحوظة وآليات عملها . وفي الحقيقة، يحق لنا أن نستخلص أن تصور الثرثرة النسائية، مثلها مثل أي تصور آخر تشكل صورة مستقلة من التصور، والوصف والتصرفات التي تنشأ في لحظة معينة وتتأبد حتى الموت . ويتميز هذا التصور بعنصريته، وبطريقة عمله العنصرية . وتبين السياقات المختلفة، والحالات التي تفحصناها بوضوح بروز هذا الوجه من التصور وديمومته .

مهما يقول الناس، وكيفما يقولون، نلاحظ أنهم جميعاً يقولون دوماً الشيء نفسه تقريباً تبعاً "لاعتقادٍ" مشترك بينهم، يتناول العلاقة بين النساء والثرثرة .

لهذا السبب، لا يكفي ملاحظة النساء "كما هنَّ عليه فعلاً"، أو النظر في المعايير الإضافية للاستبيان للحصول على تأويلات جديدة للعلاقة بين النساء والثرثرة . ويحق لنا الزعم أن هذه الملاحظات وتلك المعايير الإضافية لا تقوم إلا بتعزيز تصور نلاحظُ ديمومتهُ الواضحة عبر العصور والثقافات .

هذا التصور نفسه هو الذي ينبغي أن يتغير قبل البدء بتأويل علاقات جديدة بخصوص الواقع نفسه . لكن مسألة التغيير أو التجديد لم تطرح أبداً . وقد رأينا أن جهود المرأة الجديدة ليست سوى إعادة تأويل نموذج موجود سلفاً . لم يخطر ببال أحد تدمير هذا التصور الاجتماعي، ولم يفكر بالوسائل الكفيلة للقيام بهذا الأمر .

يبقى الأمل يحدونا بأن تقوم الأجيال القادمة بهز رؤوسها المُرتابة وتدهش – كما دُهشنا أمام معتقدات أجدادنا الفلاسفة .